

مِلَّةُ عِلَّةِ الْمُقَامِ

فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامراني



دار الكتب

مُرَاعَاةُ الْمُقَامِرَاتِ

فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ

○ الموضوع: لغة عربية
العنوان: مراعاة المقام في التعبير القرآني
تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ISBN 978-614-415-149-5

○ حقوق الطبع محفوظة ©

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

ISBN 978-614-415-149-5



9 786144 151495

○ الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التحليل: شركة فؤاد البعيتو للتحليل - بيروت

○ الورق: أبيض / الطباعة: لوانان / التحليل: كرتونية

○ القياس: 17x24 / عدد الصفحات: 200 / الوزن: 500 غ

دمشق - سوريا - ص.ب. : 311

حليبي - حادة ابن سينا - بناء الجاهلي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541

بيروت - لبنان - ص.ب. : 113/6318

مركز أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديثة - تلفاكس: 01 817857 - جوال: 03 204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

مِرَاعَاةُ الْمُقَاتِلِ فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ

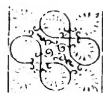
تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار ابن كثير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾



الحمد لله أهل الحمد كله ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته واتبع هداه إلى
يوم الدين .

وبعد :

إن مراعاة المقام في التعبير القرآني ظاهرة بيّنة ، فلا يكاد يخلو موضع
من مواضع التعبير من مراعاة المقام . فهو أمر عام في عموم المواطن من
الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والتوكيد وعدمه ، وفواصل الآي ،
والالتفات ، واختيار لفظة على أخرى ، وغير ذلك من مواطن التعبير .

وقد مرت بنا أمثلة كثيرة فيما عرضنا له من التعبير في القرآن الكريم ،
والمفسرون يذكرون ذلك في مواطن كثيرة من كتبهم .

وفي هذا الكتاب ضربت له أمثلة على العموم ، ثم خصصت له أمثلة
في موضوع الالتفات ؛ ذلك أن عددًا من الموضوعات خصصت لها أبوابًا
في عموم ما كتبت كالتقديم والتأخير ، والتأكيد ، والتشابه والاختلاف ،
والذكر والحذف ، وغيرها ، ولم أفرد للالتفات بابًا . فأثرت أن أذكر شيئًا
من ذلك في هذا الكتاب .

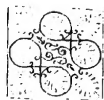
ولا بدّ أن أذكر أن كل ما ذكرته في مراعاة المقام وفي عموم ما كتبت
من الأغراض إنما هو غيض من فيض وليس استقصاء ؛ ذلك أن

الاستقصاء فيه وفي غيره متعذر لكثرتة ، ولخفائه أحياناً ، ولأن قسماً منه يدركه أصحاب الاختصاص من أهل العلم دون غيرهم ، ولأن منه ما يخفى على أهل العصور المتقدمة ويظهر لمن بعدهم ، فإن القرآن لا يبلى جديده ولا يخلق من كثرة الرد . وقد يفتح الله على عبد من عباده ما لا يفتحه على غيره . وهو أعلم بعباده .

أسأله سبحانه أن يفتح لنا في كتابه فتحاً مباركاً ، وأن يرزقنا علماً يُنتفع به إنه سميع مجيب .



مراعاة المقام في التعبير القرآني



في الذكر والترك

إن القرآن الكريم يراعي المقام في التعبير في الذكر والترك.

فإن القرآن يراعي المقام في ذكر التعبير كما هو معلوم ، وقد ضربنا لذلك أمثلة فيما عرضنا له من التعبير القرآني .

وقد يراعي المقام في ترك التعبير فيما يُظن أنه سيذكره في سياقه .

وقد يكون الذكر عامًّا كما ذكرنا - مثلاً - في استعمال الوالدين والأبوين^(١) ، وكما ذكر في استعمال الريح والرياح ، والأعين والعيون ، وغير ذلك .

وقد تكون مراعاة المقام في الترك ، فلا يذكر أمرًا فيما يظن أنه سيذكره ، وكل ذلك لسبب ، فهو إذا ذكر فإنما يذكر لأمر يقتضيه المقام ، وإذا لم يذكر فإن ذلك لأمر يقتضيه الحال . ومن مراعاة المقام في الذكر والترك مثلاً ما يأتي :

١ - إنه إذا ذكر الخلود لأهل الجنة فإنه لا يذكره إلا بصيغة الجمع (خالدين) . ولم يذكر مرة الخلود لهم بالافراد ، فلم يقل مرة (خالداً) ؛

(١) انظر (على طريق التفسير البياني) ج ٢ - تفسير سورة لقمان .

ذلك أن الوحدة عذاب ولو كانت في جنات النعيم ، وأن الاجتماع من مستلزمات السعادة .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [النساء: ١٣] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٢] .

وقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩] .

وأما أصحاب النار فيذكر الخلود لهم بصيغة الأفراد وبصيغة الجمع ، فيكون العذاب بالوحدة ، وقد يكون العذاب بالجمع المستلزم للإهانة ، أو لغير ذلك من دواعي العذاب بحسب ما يقتضيه المقام .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ١٤] .

وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾ [التوبة: ٦٣] .

فهذا بصيغة الأفراد .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩] .

وقال : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٩] .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وهذا بصيغة الجمع .

٢ - ومن ذلك أنه إذا ذكر أزواج المؤمنين من النساء المؤمنات ، وذكر إدخالهن الجنة لم يذكر معهن الحور العين ، فلم يرد في القرآن الكريم ذكر الحور العين مع أزواج المؤمنين مراعاة لنفسيتهن ومشاعرهن . فإن المرأة لا ترغب أن تكون معها شريكة في زوجها ولو كانت من الحور العين .

قال تعالى : ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٣] .

وقال : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴾ [يس : ٥٦] .

وقال : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٠] .

٣ - ورد في القرآن الكريم ذكر كلمة (عالم) ، وكل ما ورد منها إنما هو في علم الله للغيب والشهادة ، إلا قوله في سبأ : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِيَ الْغَيْبِ ﴾ [سبأ : ٣] ، وقوله في فاطر : ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ غَنَمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [فاطر : ٣٨] ، وقوله في سورة الجن : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] .

فقد ذكر فيهن علم الغيب وحده ولم يقرن علمه بالشهادة ؛ وذلك أن كل ما ذكر فيه علم الشهادة مع الغيب فقد ذكر فيه ما يشهد ويصبر مع الغيب ، وذلك كقوله سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ٧٣] ، ذلك أنه قال : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [٧٦] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . . . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ٧٢ - ٧٣] وإقامة الصلاة مما يشهد ، والحشر إنما يكون للجزاء على الاعتقاد والعمل ، والسموات والأرض مشاهدان .

فناسب ذكر الغيب والشهادة .

وكقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْثِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤] ، ذلك أنه لما قال: ﴿فَيُنْثِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والعمل مما يشاهد قال ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ .

ونحوه قوله في سورة الرعد: ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ، ذلك أنه قال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ إِلَهُهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سَوَاءً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١٠ - ١١] .

فقد ذكر من أسَرَ القول ومن جهر به ، وإسرار القول من الغيب . وأما الجهر فليس من الغيب . وكذلك المستخفي بالليل والسارب بالنهار ، فالمستخفي بالليل غائب ، والسارب بالنهار مشاهد .

والمعقبات غيب ، والذي يحفظه من الخلق مشاهد .

وكذلك كل ما ذكر فيه عالم الغيب والشهادة .

وأما قوله في سبأ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣] فإن الكلام فيه على مجيء الساعة ، وهو غيب محض . قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] .

ونحو ذلك ما جاء في فاطر ، فإن السياق في الكلام على اليوم الآخر وما أعد فيه للمؤمن والكافر ، وذلك من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية السابعة والثلاثين (٣٢ - ٣٧) ثم قال: ﴿إِنَّكَ إِلَهُهُ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨] . وما في الساعة وما في الصدور غيب وليس مشاهداً .

ونحو ذلك ما ورد في سورة الجن ، فقد قال : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكَ رَبِّي أَمَدًا ۖ ﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ . . . ﴿ [الجن : ٢٥ - ٢٧] .

فقد أمر الله رسوله أن ينفي عن نفسه العلم بموعد الساعة أهو قريب أم بعيد ، وهو غيب وليس من الشهادة .
فناسب كل تعبير موضعه .

٤ - قال سبحانه في سورة البقرة : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

وقال في سورة المزمل : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تَنَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

فقال في آية البقرة : ﴿ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وقال في المزمل : ﴿ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴾ ؛ ذلك أنه زاد على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قراءة القرآن والقرض الحسن .

فناسب زيادة الخير وعظم الأجر .

٥ - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وقال في سورة النحل : ﴿ فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] .

فقال في البقرة : ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

وقال في النحل : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

فأمر بالشكر لله في آية البقرة .

وأمر بشكر نعمة الله في آية النحل .

ذلك أن الكلام في البقرة على الله ، وذكر أن من الناس من يتخذ أندادا من دون الله فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا ءَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

وأما في النحل فالسياق في ذكر النعم وذكر من كفر بالنعم وعاقبة ذلك فقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

وقد تكرر ذكر النعم في سورة النحل في مواطن عدة ، حتى أن سورة النحل تسمى سورة النعم لما عدد الله تعالى فيها من النعم على عباده^(١) ، من نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] ، وقوله : ﴿ أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٢] ، وقوله : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل : ٨٣] وغيرها .

فناسب كل تعبير موطنه الذي ورد فيه .

٦ - قال تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ

مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٤] .

فذكر حب الشهوات الذي زُيِّنَ للناس ولم يذكر حب النساء للرجال لئلا يخدش حياءهن . غير أنه دخل النساء في ذلك مع أنهن لم يذكرن وذلك في ذكر البنين ، فإن النساء يحببن أن يكون لهن بنون كما يحب الرجال .

وفي ذكر القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فإنهن قد يفقن الرجال في حب الذهب والفضة .

وقد يكون في غير ذلك مما ذكر من الخيل وغيره .

وقوله (للناس) يشمل الرجال والنساء .

فدخل في حب الشهوات الرجال والنساء ، وإن لم يذكرن مراعاة لحيائهن .

٧ - قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] .

لقد قال في هذه الآية: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فنسب الظلم إلى أهلها ، ولم يقل (من هذه القرية الظالمة) ؛ وذلك لأن المقصود بها مكة فلم ينسب الظلم إليها تشريفاً لها .

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «والوصف صفة قرية وتذكيره لتذكير ما أسند إليه . . .

ولم ينسب الظلم إليها مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ ، وقوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله عز وجل ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ لأن المراد

بها مكة... فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريقاً لها شرفها الله تعالى» (١).

ولذا قد يصف ربنا القرى بالظلم فيقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١] ، أو يقول: ﴿فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] ، وكقوله: ﴿وَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أُمْلِئَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨] .
إلا مكة - كما قيل - تشريقاً لها وتعظيماً.

٨ - قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧-١١٨] .
وقال في سورة الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرُ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣-٤] .

وقال في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [الصافات: ٦-١٠] .
﴿كُلُّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧] لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمٍ لَّا أَعْلَىٰ وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠] .

* * *

وصف الشيطان في آيتي النساء والحج بالمريد .
ووصفه في آية الصافات بأنه مارِد .
والمريد والمارِد والمتمرد الخارج عن الطاعة (٢) .

(١) روح المعاني ٨٢/٢٥ .

(٢) روح المعاني ١٤٩/٥ .

و(مارد) اسم فاعل من مرد.

و(مريد) صيغة مبالغة على وزن (فعليل) ، أوصفه مشبهة ، وهو أشد وأعتى من المارد ، وإن كان أهل اللغة يجعلونهما واحداً^(١) .

ويدل على ذلك ما وصف به الشيطان في كل مما ورد ، فقد قال في سياق آية النساء: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَاضِلَّهُمْ وَلَأُمْنِيَّتَهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيَتَّبِعَنَّ ءَإِذَا كُنتُمْ لِلْعَمَلِ الْغَاسِقِ إِلَىٰ يُصَلُّونَ فَسَوْفَ نُحَسِّبُكُمْ فَيُعَذِّبُكَ اللَّهُ وَنَمَّازُ الشَّيْطَانِ وَلَيَشَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ [النساء: ١١٧-١١٩].

فذكر من صفات العتوّ ومحاربته لبني آدم ما لم يذكره في المارد .
والنصيب المفروض ، أي النصيب الواجب الذي اقتطعه لنفسه وهم
الكفرة والعصاة^(٢) .

وكذلك ما ورد في آية الحج .

فوصفه في الموضوعين بأنه مرید .

وأما ما ورد في الصفات فلم يذكر ما يتعلق عتوه بالإنسان ، وإنما ذكر تعالى حفظه السماء من كل شيطان مارد ، وأنهم يقذفون من كل جانب دحورًا .

فذكر أنهم لا يسمعون إلى الملائة الأعلى ، فهم أضعف من ذلك ،
وأنهم يُقذفون من كل جانب ، وأنهم دحور أي مطردون مبعدون .

فذكر في صفة الشيطان المريد أنه حقق شيئاً مما يريد ، فقد ذكر في

(۱) انظر لسان العرب (مرد).

(٢) البحر المحيط ٣/٣٥٢.

آية النساء أن من الناس من يدعون الشيطان المريد الذي لعنه الله .

وذكر في آية الحج أن من الناس من يتبع كل شيطان مريد .

فهم حققوا شيئاً مما يريدون وهم دائبون على ذلك .

وأما من ذكرهم في صفة المارد فإنهم أضعف وأذلّ من أن يفعلوا أي شيء يريدونه . فإنهم لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ، وإنهم يقذفون من كل جانب ، وإنهم مطرودون مبعدون .

فناسب وصف الأولين بالشيطان المريد ؛ وذلك أنه حقق شيئاً مما يريد ، وأنه يحقق شيئاً مما يريد في إضلال بني آدم .

وناسب وصف من في الصفات بالشيطان المارد ؛ لأنه لا يحقق شيئاً مما يريد .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه سبحانه إذا حفظ السماء من الشيطان المارد فإن حفظها من الشيطان المريد أولى . فذكر الشيطان المارد ليدل على أن حفظها ممن هو أعتى أولى ، وذلك نظير حفظ الجسم من المكروبات ، فإنه إذا كان حفظ الجسم من المكروبات الضعيفة مطلوباً فان حفظه من المكروبات التي هي أقوى وأشد أولى . والله أعلم .

٩ - قال تعالى في سورة النساء : ﴿ لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُوْثِيْهِمْ أَجْرًا عَظِيْمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

وقال في سورة الحج : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْسِتِيْنَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَالصّٰدِقِيْنَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُوْنَ ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

فقد قال تعالى في آية النساء: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ بذكر النون في (المقيمين).

وقال في آية الحج: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ﴾ بحذفها.

فما السبب؟

والجواب أن آية النساء إنما هي في الذين آمنوا من أهل الكتاب.

وأما آية الحج فهي في المسلمين الذين يؤدون شعائر الحج ، وهي في سياق الحج ومناسكه . فقد ذكر قبل الآية المسافرين إلى الحج فقال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] .

ثم ذكر مناسك الحج والذبح فيه .

فهم في سفر ، فلعل حذف النون إشارة إلى القصر في الصلاة أو الجمع فتقل أوقاتها أو ركعاتها .

ثم انظر من ناحية أخرى كيف وصف من آمن من أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ، ووصف المسلمين الذين يؤدون مناسك الحج بقوله: ﴿وَمِمَّا رَفَعْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ ؛ ذلك أن الكلام في مناسك الحج والذباح والهدي وهذا ليس من الزكاة وإنما هو في الإنفاق فيما يتعلق بالذبح والمناسك .

جاء في (روح المعاني): «﴿وَمِمَّا رَفَعْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ في وجوه الخير ومن ذلك إهداء الهدايا التي يغالون فيها»^(١).

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

١٠ - قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨-٤٩) .
يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩] .

وقال في الكهف: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦] .

فاختلف التعقيب في كل من الآيتين مع أن مبتدأهما واحد وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ .

فذكر في الأنعام عاقبة المؤمنين والكافرين ؛ وذلك أنه ذكر قبلها عاقبة المكذبين بالرسول في الدنيا فقال: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] .

وذكر في الكهف الذين يجادلون بالباطل فقال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ؛ ذلك لأنه ذكر قبلها صفة الجدل في الإنسان على العموم فقال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] .

فكان كل تعبير مناسباً في موطنه الذي ورد فيه .

١١ - قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقال في الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] .

فذكر الإخوان في آية الحجر ولم يذكرهم في آية الأعراف ، ذلك أنه لما ذكر أن المتقين على سرر متقابلون ناسب أن يذكر أخوتهم بعضهم لبعض فقال: (إخوئاً) .

ولم يذكر اجتماعهم والتقاءهم في آية الأعراف .

فناسب كل تعبير موضعه .

١٢ - قال سبحانه في سورة يونس : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ . . . فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] .

بإفراد السماء .

وقال في سورة سبأ : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

بجمع السماء فقال : (السماوات) .

فقال في آية يونس : ﴿ فَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لما أفرد السماء .

ذلك أنهم يعلمون الذي يرزقهم من السماء والأرض ، وأنه هو الله .

ومن معاني الرزق من السماء : المطر .

وقد سمى الله السحاب سماء فقال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . . . ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق : ٩] .

وسمى المطر رزقاً فقال : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الجاثية : ٥] .

فلو سألتهم من يرزقهم من السماء والأرض لأجابوا : الله الذي يرزقنا .

وأما في آية سبأ فقد قال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴿١٠﴾ ، وهم لا يعلمون أن الرزق من السماوات وأنه يقدره ربنا وينزله من سماء إلى سماء حتى يصل إليهم .

ولذا أمره هو أن يقول إن ذلك هو الله فقال : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ .

فاختلف الأمران .

جاء في (التفسير القيم) لابن القيم في آية يونس أنهم لما «كانوا مقرّين بهذا كله حين الاحتجاج به عليهم أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره . . .

ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ أي لا بد أنهم يقولون بذلك ولا يجحدونه

ولم يكونوا مقرّين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم ، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفرد لفظ السماء هنا . . .

أما الآية التي في سبأ فلم تنتظم إقرارهم بما ينزل من السماوات ، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها . ولم يذكر أنهم المجبيون المقرون فقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ .

ولم يقل : (سيقولون الله) .

فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع^(١) .

١٣ - قال تعالى في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٥] .

وقال في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٦] .

ونود أن نشير إلى أمرين في هذين التعبيرين:

١ - فقد قدم المرسل إليهم في آية يونس وهم فرعون وملؤه على الآيات فقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ .

وقدم الآيات في (المؤمنون) على المرسل إليهم فقال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ .

٢ - وذكر السلطان في آية المؤمنون فقال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ولم يذكره في آية يونس .

فلم ذاك؟

١ - فنقول إن تقديم المرسل إليهم في آية يونس مناسب للسياق الذي وردت فيه ، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَضَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤] .

فقدم المرسل إليهم بقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ على البينات وهو قوله ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ .

فناسب تقديم المرسل إليهم وهم فرعون وملؤه في الآية الخامسة والسبعين .

وأما في سياق آية المؤمنون فإنه ذكر كتاب موسى بعد هذه الآيات فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] .

والكتاب من الآيات وفيه آيات ، فناسب تقديم الآيات في آية المؤمنون .

٢ - وأما ذكر السلطان في آية المؤمنون وهو قوله: ﴿ثَائِلَتَنَا وَسُلَاطَنٍ مُّسِينٍ﴾ وعدم ذكره في آية يونس فهو المناسب لسياقه أيضًا .

فقد قال في آية (المؤمنون): ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] .
وذكر استعباد فرعون لبني إسرائيل فقال: ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] .

واستعباد الأقسام إنما يكون بالسلطان والقهر .

والسلطان علو وهو أعلى من مجرد العلو ، فالسلطان أعلى شيء .

فناسب ذلك ذكر السلطان ، فهو مناسب لذكر علوهم واستكبارهم واستعبادهم لقوم موسى .

وليس مثل ذلك مذكورًا في يونس .

قد تقول: لقد قال أيضًا في يونس: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ .

وقال عن فرعون: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣] .

فنقول: إنه قال فيهم: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ والإجرام ليس سلطانًا ، وذكر أن فرعون عالٍ في الأرض ، ولم يذكر استعباده لقوم موسى ، والاستعباد للأقسام أدلّ على السلطان والقهر ، فناسب ذلك ما ورد في المؤمنون .

وذكر في آية يونس أنهم كانوا قومًا مجرمين ، وذكر عن فرعون إنه لمن المسرفين ، وهو مناسب لما ورد في السورة من حالات إجرام فرعون وإسرافه من فتنه بني إسرائيل واتباعه لبني إسرائيل بغيًا وعدواً .

فقد قال: ﴿فَمَا أَمَّنْ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] .

وقال: ﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ [يونس: ٩٠] .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

وهناك لطيفة أخرى في آية المؤمنين فقد قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ فذكر أخوته لهرون ، ذلك أنه ذكر بعد هذه الآيات ابن مريم وأمه فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] .

فذكر النسب: (الابن) و(الأم) حتى إنه لم يقل (عيسى وأمه) بل ذكر النبوة ، فناسب ذلك ذكر الأخوة بين موسى وهرون فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ . ولم يذكر مثل ذلك في يونس . وهو من لطيف التناسب .

١٤ - قال تعالى في سورة هود: ﴿قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] .

وقال قبلها وبعدها (قيل) وذلك أن هذا حكم شرعي وهو الله حصراً^(١) .

١٥ - ذكر ربنا في قصة سيدنا يوسف أنه عندما عبر الرؤيا للسجينين معه أنه قال للذي ظن أنه ناج منهما: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] .

وفي هذا الأمر دلالة عظيمة على أن الشيطان قد يكيد للمؤمن ولا يعلم أن هذا الكيد قد يكون فيه نفع عظيم للمؤمن ، ولو علم عاقبة ذلك الكيد لم يفعله ولفعل ضده . فإن من أثر هذا الإنشاء أن يوسف عليه

السلام لبث في السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك رؤياه المشهورة فلم يعبرها له أحد حتى تذكر السجين الناجي سيدنا يوسف فعبّر له الرؤيا وكان عاقبة ذلك أن صار سيدنا يوسف عزيز مصر . فكأنه استبقاه الله ليكون عزيز مصر . ولو أخرج من السجن بعد نجاة السجين لذهب في الأرض ولم يعلم أحد أين ذهب ولا أين هو فلم يحظ بهذا المنصب الرفيع فكان كيد الشيطان فيه نفع عظيم لسيدنا يوسف وذلك من قدره سبحانه فازداد الشيطان إثماً إلى آثامه بهذا الكيد وعظمت منزلة نبي الله يوسف .

ولو علم الشيطان عاقبة ذلك الكيد لعجل في تذكير السجين ، والله بكل شيء عليم .

وقريب من ذلك ما ورد في سورة الكهف في قصة سيدنا موسى والرجل الصالح ، فإن الله أخبر سيدنا موسى أنه يجد الشخص المطلوب وهو الخضر حيث يفقد طعامه^(١) ، فمضيا في السفر للبحث عنه ، وقد أنسى الشيطان فتى موسى طعامه في موضع ما . فلما بلغ منهما النصب مبلغاً كبيراً طلب موسى الطعام قائلاً لفتاه : ﴿ إِنَّا غَدَاةً نَأْكُلُ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢] .

فعند ذلك تذكر الفتى أمر الطعام فقال له : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُبْزَ وَمَا أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٦٣] .

فقال له موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤] .

فوجدا الشخص المطلوب في ذلك المكان .

ولو علم الشيطان ذلك لما كان أنساه ، ولكان يتركه يسير في الأرض للبحث عن سيدنا الخضر .

فدل ذلك على جهل الشيطان ، وأنه قد يكون في كيدهِ نفع للمؤمن .

١٦ - قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ تَاللّٰهِ تَفْتَوُاْ تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُوْنُ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنُ مِنَ الْهٰلِكِيْنَ ﴾ [يوسف : ٨٥] .

هذه الآية قالها إخوة يوسف لأبيهم حين قال : ﴿ يٰٓأَسْفَىٰ عَلَىٰ يُّوسُفَ ﴾ وقد ابيضت عيناه من الحزن .

والمعنى : أنك لا تزال تذكر يوسف حتى تكون مريضاً مرضاً شديداً مشفياً على الهلاك أو تهلك .

وأصل التعبير (لا تفتأ) وحذفت (لا) جوازاً ، وهذا قياس في جواب القسم تقول : والله أذهب ، أي : لا أذهب ، لأن المضارع المثبت لا بد له من اللام في جواب القسم ^(١) أي : لأذهب أو لأذهبن .

واختار الفعل (تفتأ) على (تزال) ونحوه ، ذلك أن من معاني (فتىء) : نسي ، « يقال : (فتئت عن الأمر) إذا نسيته وانقدعت » ^(٢) .

ويأتي بمعنى (سكن) وأطفاً النار . قال الفراء : « فتأته عن الأمر سكنته ، وفتأت النار أطفأتها » ^(٣) .

ومعنى قوله ﴿ تَاللّٰهِ تَفْتَوُاْ تَذَكَّرُ يُوسُفَ ﴾ « أي لا تنسى ذكره على تقادم العهد ، ولا تسكن نفسك ولا تكف عن ذكره ولا تطفئ ما في جوانحك من نار التعلق به . وهو أنسب فعل في هذا المقام » ^(٤) .

(١) انظر معاني النحو (حذف) (لا) من جواب القسم) ١٥٤ / ٤ - ١٥٥ .

(٢) لسان العرب (فتأ) .

(٣) تاج العروس (فتأ) .

(٤) معاني النحو ٢٢٦ / ١ - ٢٢٧ .

وحذف (لا) من جواب القسم ، فلم يقل : (تالله لاتفتأ) ؛ ذلك أن الذكر أكد من الحذف ، وهم غير متأكدين من أن الأمر سيكون على ذلك ، وهو لم يحصل . فلما كان الأمر غير مؤكد ، وأقسموا على أمر غير متأكدين منه حذف (لا) من جواب القسم مع إرادته في المعنى ؛ لأنه غير مؤكد . وهذا من لطيف مراعاة المقام وبديعه .

١٧ - وجاء في سورة يوسف قول سيدنا يوسف لأبيه وإخوته من بعدما جاء بهم وخرؤا له سجدًا : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

فقال : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل : (إذ أخرجني من الحب) لثلاث تكون إشارة إلى تشريب إخوته وما فعلوه به وقد قال لهم : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ .

ثم إن إخراجهم من الحب كان إلى الرق ، وإخراجه من السجن إلى أن يكون عزيز مصر ، فنعمة الله عليه بذلك أكبر .

جاء في (روح المعاني) : « ولم يصرح عليه السلام بقصة الحب حذرًا من تشريب إخوته وتناسيًا لما جرى منهم . . . »

ولأن الإحسان إنما تم بعد خروجه من السجن لوصوله للملك وخلوصه من الرق والتهمة^(١) .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه :

الأول : أنه قال لإخوته : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ولو ذكر واقعة البئر لكان تشريبًا لهم فكان إهماله جاريًا مجرى الكرم .

الثاني: أنه لما خرج من البئر لم يصير ملكاً بل صيره عبداً .
أما لما خرج من السجن صيره ملكاً ، فكان هذا الإخراج أقرب من
أن يكون إنعاماً كاملاً .

الثالث: أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة
المرأة ، فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة ،
فكان هذا أقرب إلى المنفعة»^(١) .

١٨ - قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] .
قال تعالى في الآية: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل (بإذن الله) ؛ وذلك أن
لفظ الرب مشعر باللطف والهداية والإنعام ، فإن الرب معناه المالك
والسيد والمربي والقيّم والمنعم^(٢) .

فهو المناسب هنا ؛ ذلك أن المقام مقام هداية بإخراج الناس من
الظلمات إلى النور . فناسب ذكر الرب وأضافه إلى ضميرهم (ربهم) ،
فإنه رب الناس ، وهو يهديهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور .
جاء في (روح المعاني): ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه
تعالى . . .

وكان الظاهر (بإذنا) إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير ، وقيل
(ربهم) للإشعار بالتربية واللطف والفضل وبأن الهداية لطف محض . . .
وأضيف إلى ضمير الناس اسم الرب المفصح عن التربية التي هي
عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجه إليه»^(٣) .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ، المجلد السادس ٥١٢ .

(٢) انظر لسان العرب (رب) ، البحر المحيط ١٨/١ .

(٣) روح المعاني ١٨٠/١٣ .

وجاء في (البحر المحيط): «قال: ﴿يَا ذُنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ذلك الإخراج بتسهيل مالكم النظر في مصالحهم ، إذ هم عبيده ، فناسب ذكر الرب هنا تنبيهاً على مئة المالك وكونه ناظرًا في حال عبيده» (١).

ومن الملاحظ أنه في موطن اللطف والهداية والتفضل يذكر الرب أو الله . وأما في موطن المصائب والضرر فلا يقول (يا ذُنْ ربهم) بل يذكر لفظ الجلالة ؛ لأن لفظ الرب مشعر بالإنعام والتربية والمالك كما ذكرنا . وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

فلما ذكر الضرر قال: ﴿يَا ذُنْ اللَّه﴾ .

وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنْ اللَّه وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] .

وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَاكِرِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠] .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] .

وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] .

في حين قال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] .

وسبحان الله رب العالمين .

١٩ - قال تعالى في سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] .

وقال في سورة يس: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠] .

فأعاد الضمير على الشجر بلفظ المذكر فقال في آية النحل: ﴿فِيهِ شَيْمُوتٌ﴾ .

وقال في آية يس: ﴿مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ .

وقال في سورة الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُمٍ ﴿٥٢﴾ فَالتَّالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِن لِّغَمٍ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٤] .

فأعاد الضمير على الشجر بلفظ المؤنث فقال: ﴿فَالتَّالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وذلك جائز في اللغة ، فإن (شجر) اسم جنس جمعي وهو يؤنث ويذكر . جاء في (البحر المحيط) في قوله تعالى: ﴿فَالتَّالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾: «الضمير في (منها) عائد على شجر إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر»^(١) .

ولعل السبب في هذا الاختلاف أن التأنيث يفيد الكثرة كما هو معلوم في اللغة وكما ذكرناه في أكثر من مناسبة . ولا شك أن شجر جهنم أكثر بكثير من أشجار الدنيا المذكورة في آيتي النحل ويس .

فجاء بما يدل على الكثرة وهو ضمير المؤنث .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

٢٠ - قال تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨] .

فإن في قوله سبحانه: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ إشارة إلى ما في نفس الإنسان من أنه إذا طال مكثه في مكان ما فإنه يرغب في التحول عنه إلى

غيره ، فإن الإنسان يملّ من المكث مدة طويلة في مكان ما أيًا كان ذلك المكان ، ومهما كان جميلاً فإنه يود أن يرى غيره .

فأشار هنا إلى أن أصحاب الجنة لا يريدون التحول عنها ، وأنهم لا يعتربهم الملل هناك ، وذلك إما لأن المشاهد تتغير في الجنة ، ففي كل وقت يرى ساكنها جديداً تسرّ به نفسه ، أو أن الله سبحانه يغير ما في نفسه فتكون شيئاً آخر على غير ما هي في الدنيا .

وهذه إشارة إلى ما في نفس الإنسان من الطبيعة ، وأنها جواب عن سؤال المرء لنفسه : ألا يملّ من البقاء في هذا الموضع بقاءً مستديماً من غير تحول ؟

٢١ - قال تعالى في سورة طه في قصة آدم أن ربنا حذر آدم من إبليس قائلاً : ﴿ يَتَّادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧] .

فقال (فتشقى) والخطاب لآدم ، مع أن الكلام على إخراجه وزوجه ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ ﴾ ولم يقل (فتشقى) ، فجعل الشقاء لآدم في الدنيا ، ذلك - والله أعلم - أن الرجل هو المكلف بإعالة النساء والعائلة وليست المرأة . فهو الذي يشقى ويتعب في توفير ذلك لأهله . فإن المرأة ليست مكلفة بإعالة الزوج والأولاد ولو كانت تملك الدنيا ، وإنما الرجل هو المكلف ولو كان لا يملك شيئاً . فهو الذي سيشقى في الدنيا . جاء في (روح المعاني) : «وقيل : المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادي المعاش وهو من وظائف الرجال» ^(١) .

هذا إضافة إلى نهاية الفاصلة .

٢٢ - قال سبحانه في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿[الحج: ٦-٧] .

وقال في سورة غافر: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩] .

فقال في آية الحج: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

وقال في آية غافر: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

فأكد إتيان الساعة في آية الحج بـ (أَنَّ) وحدها ﴿أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ ، وأكد في غافر بـ (إِنَّ) واللام ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ .

ذلك أنه قال قبل آية الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُكُمْ مِّنْ تُرَابٍ . . .﴾ [الحج: ٥] .

فذكر الريب .

وأما في آية غافر فقد قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

فذكر عدم الإيمان .

ولا شك أن عدم الإيمان أشد وأبعد في الإنكار ، فافتضى ذلك الزيادة في التوكيد في آية غافر .

٢٣ - قال سبحانه في سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] .

وقال في سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] .

فقال في آية الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ .

فذكر صفة الكفر مع الخيانة .

وقال في آية النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ .

فذكر صفة الإثم مع الخيانة .

ذلك أنه في آية الحج ذكر الذين آمنوا ودفاعه عنهم ، فناسب في المقابل أن يذكر الخَوَّانَ الكفور ، أي المبالغ في الكفر .

وأما في آية النساء فقد ذكر الذين ارتكبوا الإثم مع الخيانة . وكان ذلك في جماعة من المنافقين سرقوا طعامًا وسلاحًا واتهموا به بريئًا من المسلمين فبرأه الله سبحانه^(١) . وقد ذكر سبحانه أمرهم في آيات من سورة النساء ومنها هذه الآية .

ومما قاله سبحانه في السياق: ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١١ - ١١٢] .

فناسب ذكر الخَوَّانَ الأثيم في الآية ، أي المبالغ في الإثم .
فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

٢٤ - قال سبحانه في سورة الحج: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۝١٢١ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝١٢٢ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤] .

فقد ذكر قوم نوح وعادًا وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ولم يذكر قوم موسى ، وإنما قال: ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ ، ذلك أن قوم موسى لم يكذبوه ، بل آمن له أكثرهم ، وإنما كذبه فرعون وقومه ، فلا يناسب أن يقول (وقوم موسى) .

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾: «المكذب له عليه السلام هو القبط وليسوا قومه، بل قومه عليه السلام بنو إسرائيل ولم يكذبوه بأسرهم، ومن كذبه منهم تاب إلا اليسير... ولهذا لم يقل (وقوم موسى) كما قال (قوم نوح وقوم إبراهيم)»^(١).

٢٥ - قال سبحانه في سورة الحج: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿الحج: ٥٨ - ٥٩﴾.

وقال في سبأ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال في سورة المؤمنون: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا فَخَرَجَ رِيكٌ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢].

وقال في سورة الجمعة: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ الْجَنَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

فقال في آية الحج: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ بالتوكيد باللام.

وقال في الآيات الأخرى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أو ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من دون توكيد.

ذلك أن آية الحج فيمن ترك أرضه وماله وخرج إلى أرض أخرى في سبيل الله فقتل أو مات. فذكر ربنا أنه ليرزقهم خيرا مما كان عندهم وليسكنهم خيرا من مسكنهم الذي تركوه.

فأكد الرزق مرتين ، مرة بقوله تعالى : ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فأكد الفعل بنون التوكيد الثقيلة ، ثم وصف الرزق بالحسن فقال : ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ .

والمرة الأخرى أكده بقوله : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فأكد ذلك بيان واللام .

ثم قال بعد ذلك : ﴿لَيَدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ فذكر مكان إقامتهم وأنهم يرضون ذلك المدخل ، وأكد ذلك بنون التوكيد الثقيلة فقال : (ليدخلنهم) ووصفه بأنهم يرضونه .

فذكر أمرين للمهاجرين في سبيل الله :

الرزق الحسن ، والمدخل الذي يرضونه وهو المكان .

ذلك أن المهاجر في العادة يترك أرضه وماله مبتغيًا خيرًا من ذلك ، فذكر أن له الرزق الحسن ، والمدخل المرضي .

وأما الآيات الأخرى فهي في الدنيا فلم يؤكد ذلك ، وإنما قال : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أو ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من دون توكيد .

والملاحظ في الآية أنه لم يذكر الجهاد في سبيل الله مع الهجرة ، فهذا أجر المهاجر في سبيل الله .

وقد ذكر ربنا في آيات أخرى الهجرة مع الجهاد في سبيل الله وذلك نحو قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢] .

فذكر أنهم أعظم درجة عند الله ، وأنهم هم الفائزون ، ولم يقل (هم فائزون) بل قال : ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وذلك للدلالة على كمال الفوز وعظمه .

وذكر أنه يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وأنهم خالدون فيها أبداً . ثم ذكر أن الله عنده أجر عظيم .

والفرق بين الأجرين واضح ، فأولئك هاجروا في سبيل الله ، وهؤلاء هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

والأجر إنما يكون بحسب العمل .

وقال في آية أخرى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤١] .

فقال في هؤلاء المهاجرين إن لهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر .

فذكر أنه ليبؤنهم في الدنيا حسنة ؛ ذلك أنهم لم يُقتلوا أو يموتوا فذكر ما لهم في الدنيا والآخرة .

وأولئك قُتلوا أو ماتوا فلم يذكر الدنيا معهم وإنما ذكر ما لهم في الآخرة .

وكل تعبير مناسب لمقامه كما هو واضح .

٢٦ - قال سبحانه في سورة الفرقان : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] .

وقال في موضع آخر من السورة في عباد الرحمن : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥ - ٧٦] .

فذكر في الآية الأولى أن أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً . فذكر المقيـل وهو مكان القيلولة أو زمانها . وهو وقت الظهيرة . والقيلولة استراحة منتصف النهار أو النوم فيها .

وذكر في الآية الأخرى عن الجنة أنها حسنت مستقرًا ومقامًا ، فذكر مكان الإقامة ، والإقامة أدوم من القيلولة .

ذلك - والله أعلم - أن الآية الأولى عند الحساب أو بعده . يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٢] .

وهذا عند النزاع أو في الحساب^(١) .


ويدل على ذلك قوله سبحانه قبل الآية : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وهذا عند الحساب يوم القيامة .

وقال بعد الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

وهذا يكون في القيامة .

فذكر أن أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا وأحسن مقيلاً ، فقال (يومئذ) أي يوم إذ يحصل ذلك .

وأما الآية الأخرى فهي في جزاء أصحاب الجنة وإقامتهم وأنهم خالدون فيها . فقد قال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا ﴾  خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ [الفرقان : ٧٥-٧٦] .

فذكر أن الغرفة جزاؤهم وأنهم خالدون فيها ، ولم يذكر الخلود مع المقييل .

وقال فيها: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ .

فذكر الإقامة ، ولم يذكر الإقامة في الآية الأولى .

والغرفة: الدرجة العالية من المنازل ، وقيل أعلى منازل الجنة^(١) .

جاء في (روح المعاني): «قيل المستقر والمقيل في المحشر قبل دخول الجنة ، أو المستقر فيها والمقيل فيه»^(٢) .

وقيل: المقيل هو ساعة دخول أهل الجنة الجنة ، أو قيلولتهم مع الحور العين^(٣) .

وعلى أية حال فإن الإقامة أدوم من المقيل ، ولذا قال سبحانه إنهم خالدون فيها .

ولا شك أن مقيل أهل الجنة في كل الأحوال والأوقات وعلى كل الأقوال خير من مقيل أهل النار أعاذنا الله منها . وإن التعبير يوضح الفرق بين المقيل والمقام على كل حال وتفسير . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه ذكر مع المستقر والمقيل اسم التفضيل (خير) (وأحسن) فقال: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

ومع المستقر والمقام ذكر فعل المدح فقال: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهو يحتمل التعجب ويحتمل المدح ، أي ما أحسن مستقرهم ومقامهم ، ونعم المستقر مستقرهم ومقامهم .

ذلك أن قوله: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ يعني خيرًا من مستقر أهل النار وأحسن من مقيلهم .

(١) روح المعاني ٥٣/١٩ .

(٢) روح المعاني ٨/١٩ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/٣١٥ ، فتح القدير ٤/٦٨ ، روح المعاني ٨/١٩ .

وأهل النار ليس عندهم خير ولا حسن ولكنه من باب التفضيل ، كما يقال : (العسل أحلى من الخل) والخل ليس فيه حلاوة .

إن قولنا : (هذا أحسن من هذا) يقال لما كان في الشئين حسن وأحدهما فيه زيادة في الحسن على الشئ الآخر كقولنا : (ضوء الشمس أشد من نور القمر) و(العسل أحلى من البنجر) .

ويقال لما ليس في الشئين حسن ولا خير ولكن أحدهما أقل سوءاً من الآخر وذلك كقوله تعالى : ﴿الْيَجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وكقولك : (الضرب خير من القتل) .

ويقال لما كان في أحد الشئين حسن ظاهر وليس في الآخر حسن بل هو شر كله وذلك كقولنا (الجنة خير من النار) وكما في الآية . ونحو ما يذكره ربنا في أصحاب الجنة وأصحاب النار وذلك نحو قوله سبحانه في أهل النار : ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۚ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان : ١٣ - ١٤] .

ثم قال في الجنة : ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا﴾ [الفرقان : ١٥ - ١٦] .

فذكر المفاضلة بين الجنة والنار فقال : ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وليس في النار خير .

وأما قولنا : (حَسُنَ هذا الأمر) فهو من باب المدح له في الحسن ، وإنه ذو حسن ظاهر وثابت . ويحتمل التعجب من حسنه ، أي ما أحسن هذا الأمر !

فقوله سبحانه: ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يحتمل المدح ، أي نعم المستقر والمقام ، ويحتمل التعجب ، أي ما أحسن مستقرهم ومقامهم ! فإن صيغة (فَعَلَ) بضم العين قد تفيد المدح ، وقد تفيد التعجب كما هو مقرر في كتب النحو^(١).

والمراد به في الآية الأمران المدح والتعجب والله أعلم.

٢٧ - قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] .

وقال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۚ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ - ١١] .

فذكر في الفرقان أنه جعل النهار نشورًا ، وهو البعث من الموت .

وقال في النبأ أنه جعل النهار معاشًا .

ذلك أن كل تعبير موافق للسياق الذي ورد فيه ولمقامه .

فإنه في الفرقان تكرر ذكر النشور والتكذيب به وبالساعة ، فناسب أن يذكر أن النهار نشور .

فقد قال في آية سابقة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] .

وقال بعد: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١] .

وقال بعد ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ

(١) انظر شرح الرضي على الكافية ٢/ ٣٥٢ ، شرح ابن يعيش ٧/ ١٢٩ ، الهمع ٢/ ٨٧ -

نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ [الفرقان: ٢١] .

والذين لا يرجون لقاء الله إنما هم مكذبون بالبعث والنشور .

وقال بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفْصَحًا يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠] .

ثم إنه قال بعد الآية : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةَ مِثْنًا وَنُفِيقَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩] .

فذكر إحياء الأرض بعد موتها .

فناسب ذكر النشور .

وأما آية النبا فهي في سياق المعاش .

فقد قال بعد الآية : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١١﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٢﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبا: ١٤ - ١٦] .

والمعصرات : السحب . والماء الثجاج : المطر الشديد الانصباب .

والحب والنبات من أهم وسائل المعاش ، وكذلك الجنات الملتفة
فناسب كل تعبير موطنه الذي ورد فيه .

٢٨ - قال تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] .

قدم الأزواج على الذرية لأكثر من سبب :

من ذلك أن الأزواج أسبق من الذرية ، فإن الذرية من الأزواج كما هو معلوم . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢] .

ولأن الأزواج ألصق من الذرية بالشخص ، فهي تكون معه على جهة الاستمرار . فإن الذرية قد تفارق الأب لمشاغلها في أمور الحياة . وقد تكون بعيدة عنه . وإذا كانت الذرية من البنات فهن يذهبن مع أزواجهن .

ولهذا قد يذكر ربنا الأزواج في الجنة ولا يذكر الذرية معهم أحياناً ،
وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ جَنَّةٍ أَنفُسَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ يُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف :
٧٠] ، وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ ﴾ [يس : ٥٦] .

ولأن الذرية قد تكون لها أزواج فيكونون مع أزواجهم .

وقد يكون للرجل زوج ولا تكون له ذرية .

فهي ألصق به على العموم لا تفارقه ولا يفارقها في الغالب .

ولأنها إذا كانت صالحة فهي تحسن تربية ذريتها وتوجيههم إلى
الخير ، فقد يكون الأب منصرفاً عنهم في مشاغل الحياة ومفارقاً للبيت .

وفي الحديث : «ألا أخبركم بخير ما يكثر؟ المرأة الصالحة إذا نظر
إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته» رواه الحاكم في
المستدرک وقال حديث صحيح على شرط الشيخين .

وليس معنى ذلك أن الزوجة أحب من الأبناء إلى الرجل ، فالأبناء
أحب إلى آبائهم من الأزواج على العموم ولذا قدمهم في سياق المحبة في
قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ
اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

والتقديم والتأخير قد يكون لأسباب عديدة ، فقد يقدم الأفضل ،
وقد يقدم المفضل بحسب ما يقتضيه المقام^(١) .

٢٩ - ذكر ربنا في سورة النمل قصة سيدنا سليمان ومملكة سبأ وأن
سيدنا سليمان سأل ملأه من يأتيه بعرشها ؟ فذكر قول عفريت من الجن

(١) انظر التعبير القرآني ، باب التقديم والتأخير .

أنه يأتيه بعرشها قبل أن يقوم من مقامه (٣٩ - ٤٠) ، وأن الذي عنده علم من الكتاب قال إنه يأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه ، وقد فعل ذلك .
فدل ذلك على أن العلم أقوى من عفاريت الجن ، وأن العلم يقدر ما لا يقدر عليه الجن .

وذلك يدل على منزلة العلم العظيمة ، وأن البشر قد يملك من الوسائل ما لا يستطيعه الجن .

٣٠ - ذكر ربنا في سورة النمل أن ملكة سبأ أسلمت فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

ومن الملاحظ أنها لم تقل (رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي) كما ورد في مواطن أخرى من القرآن ، وذلك كما ذكر عن سيدنا موسى أنه قال حين قتل القبطي : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص : ١٦] .

وعن سيدنا آدم وزوجه حين عصيا ربهما فأكلا من الشجرة فقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

ذلك أن ملكة سبأ كانت كافرة ثم دخلت الإسلام ، وأن الإسلام يجب ما قبله ، فلا تحتاج إلى سؤال المغفرة ، وهذا من الفقه .

٣١ - جاء في سورة العنكبوت : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٨] .

وقال في الزمر : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : ٣٢] .

فقال في آية العنكبوت : ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ .

وقال في آية الزمر : ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ .

ومما ذكر في الفرق بين التعبيرين أن (إذ) هنا للمفاجأة ، أي كذب بالصدق فجأة من دون تفكير ولا مهلة من الوقت .

جاء في (الكشاف): ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ فاجأه بالكذب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون^(١).

أما (لما) فهي ليست بالضرورة تفيد المفاجأة ، بل قد يكون بين الأمرين وقت ومهلة ، تقول: (لما أكرمني أمس أكرمته اليوم).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] فإن هبة إسحاق ويعقوب ليست عند الاعتزال مباشرة ، بل بعد ذلك بزمان.

وقال في سيدنا سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبا: ١٤].

ولا شك أن هذا يدل على أن ذلك حصل بعد موته بمدة غير قليلة ، فدل ذلك على أن (لما) قد لا تفيد المفاجأة أحياناً.

ومن دلالة التسرع في الكذب على الله والمفاجأة فيه أنه ذكر أمرين في آية الزمر: أنهم كذبوا على الله وكذبوا بالصدق إذ جاءهم ، فقد قال سبحانه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾.

وأما في آية العنكبوت فإنهم لم يجمعوا بين الأمرين ، بل فعلوا أحدهما. وأياً ما فعلوه فهو ظلم ، فقال سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾.

فجاء بالواو في آية الزمر ، وجاء بـ (أو) في آية العنكبوت. وأياً ما كان من الأمرين فإن صاحبه ظالم ولا أحد أظلم منه.

فإن جمعهما كان أظلم .

ولثلا يظن في آية الزمر أن الذي يجمعهما هو الظالم دون من لم يجمعهما ذكر في السورة أن كلا منهما ظالم كافر .

فقد ذكر المكذبين بآيات الله وعذابه فقال : ﴿ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٩] .

وقال : ﴿ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْدَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [١٥] فَاذْفَعَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٥] - [٢٦] .

وقال في الذين كذبوا على الله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن المجيء بالواو في آية الزمر في قوله ﴿ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ مناسب لما جاء بعدها وهو قوله : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] .

فالذي جاء بالصدق مقابل لمن كذب على الله ، فذاك صدق على الله وهذا كذب عليه .

وقوله : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ مقابل لقوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ . فذاك كذب به وهذا صدق به .

فهما متقابلان وكلاهما معطوف بالواو .

وجاء بـ (من) في قوله : ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

وبـ (الذي) في قوله : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ .

ذلك أن (من) اسم موصول مشترك في المفرد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث .

و(الذي) اسم موصول مختص بالمفرد المذكر ، والاسم الموصول المختص أعرف من المشترك ، ولعل ذلك إشارة إلى أن الصنف الأول أكثر . فإن من كذب على الله كثير ، وأما الذي جاء بالصدق فهو رسول الله ﷺ^(١) ، وهو شخص واحد .

وإن آية العنكبوت مناسبة لما قبلها ، فقد سبقها الكاذب على الله في قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

فهذا نقض عهده وكذب .

وذكر المكذبين بالحق في قوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَنَّهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٦] .

فهؤلاء كفروا بما آتاهم الله ، أي : كذبوا بالحق لما جاءهم .

فهما صنفان : أحدهما راكب في الفلك .

والآخر الكافر بما آتاه الله .

فناسب ذكر (أو) لأنه ذكر حالتين . والله أعلم .

ومن ناحية أخرى أن قوله في العنكبوت : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ مناسب لما جاء قبلها : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فالحق مقابل للباطل ، فأحدهما كذب بالحق ، والآخر يؤمن بالباطل .

وأن قوله في الزمر : ﴿ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ مناسب لما جاء بعدها : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ .

والذي كَذَّبَ بالصدق مقابل لمن صدَّق به ، فـ (كَذَّبَ) مقابل (صدق).

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه من كل وجه .

٣٢ - قال سبحانه في سورة الأحزاب : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝١٦ ﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿ [الأحزاب : ٤٥ - ٤٧] .

* * *

نود أن نذكر ههنا أنه لم يرد في القرآن الكريم مناداة بـ (يا أيها النبي) لغير خاتم الرسل محمد .

وقد ورد فيه ﷺ ذلك في أكثر من موضع وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] ، وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرِ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ ﴾ [الممتحنة : ١٢] .

كما لم ترد مناداة بـ (يا أيها الرسول) لغيره ﷺ .

وقد وردت في القرآن مناداته ﷺ بذلك في أكثر من موضع . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَلْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة : ٤١] .

كما لم ترد كلمة (شاهد) صراحة في رسول غيره ﷺ . وقد ورد فيه ذلك في أكثر من موضع ، من ذلك قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفتح : ٨] ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [المزمل : ١٥] .

كما لم ترد كلمة (مبشر) في غيره ﷺ . وقد ورد فيه ذلك في أكثر من موضع ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٠٥ ، الفرقان: ٥٦] ، وقوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفتح: ٨] .

أما كلمة (نذير) فقد وردت فيه وفي غيره من الرسل ، وذلك نحو قوله تعالى على لسان سيدنا نوح: ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [نوح: ٢] .

وقد ورد في عموم الرسل ذكر التبشير والإنذار وذلك نحو قوله تعالى ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ ، الكهف: ٥٦] ، وقوله: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

كما لم ترد كلمة (بشير) إلا فيه ﷺ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجُمُحِ ﴾ [البقرة: ١١٩] ، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا: ٢٨] .

كما لم ترد (داعياً إلى الله) في غيره ﷺ . وكذلك (داعي الله) ، فقد قالت الجن لقومهم بعد ما سمعوا القرآن: ﴿ يَتَقَوَّمُوا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ . يَغْفِر لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَكُم مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١ - ٣٢] .

كما لم ترد كلمة (سراج) في رسول من رسل الله غيره ﷺ .

ونعود لنذكر شيئاً من الأمور البيانية في هذه الآيات:

ذكروا في قوله (شاهداً) أنه يحتمل وجوهاً: «أحدها أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ . . .

ثانيها: أنه شاهد أن لا إله إلا الله . . .

وثالثها: أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان

والصراط ، وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد» (١).

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي يبشر المؤمنين بالجنة وينذر الكافرين والعاصين بالنار. وقدم الشاهد لأن من معانيه الشهادة بأن لا إله إلا الله كما ذكر وهي مقدمة على ما بعدها.

وقدم المبشر على النذير ؛ لأن السياق في ذكر المؤمنين وخطابهم وتبشيرهم فقد قال قبل الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ۝١١ وَسِعَ جُودُهُ بَرْكَهٖ وَأَصْبَحَ ۝١٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّوْرِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٣﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٤] .

ثم قال بعدها : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . . .﴾ [الأحزاب : ٤٥] .

ثم قال بعدها : ﴿وَنَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٤٧] .

فناسب تقديم التبشير على الإنذار .

والتقديم والتأخير إنما يكون بحسب المقام ، فقد يقدم النذير إذا اقتضى المقام ذلك ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَمْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

فقدم النذير لتقدم ذكر الكافرين وإنذارهم ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ ﴿١٨٢﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٥] .

ويستمر الكلام على هؤلاء الضالين ، فناسب تقديم الإنذار على التبشير فقال: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ، فذكر أنه بشير للمؤمنين لا لهؤلاء الضالين المكذبين .

جاء في (تفسير الرازي): «وقوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فيه ترتيب حسن من حيث إن النبي عليه السلام أرسل شاهداً بقوله (لا إله إلا الله) ويرغب في ذلك بالبشارة . فإن لم يكف ذلك يرهب بالإنذار . ثم لا يكتفي بقولهم: (لا إله إلا الله) بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ»^(١)

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ :

قال: (بإذنه) لأن الدعوة إلى أي شخص - والله المثل الأعلى - لا تكون إلا بإذن ذلك الشخص المدعو إليه . فلو قلت: (أنا أدعوكم إلى الملك أو إلى الأمير أو إلى شخص ما) فلا يكون ذلك إلا بإذن المدعو إليه . فلما كان الرسول داعياً إلى الله لم يكن ذلك إلا بإذنه سبحانه^(٢) .

قد تقول: ولكن قال سبحانه في موضع آخر: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] فقال (أدعو إلى الله) ولم يقل (بإذنه) فلم ذاك؟

والجواب أنه لما قال له ربه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي...﴾ فهذا يعني أنه

(١) تفسير الرازي ١٧٣/٩ .

(٢) انظر تفسير الرازي ١٧٣/٩ .

سبحانه أمره بالدعوة إليه وهذا إذن وزيادة ، وهو أمر ملزم له وللمن تبعه بالدعوة إليه سبحانه على بصيرة .

وقد تقول : لقد قال سبحانه في سورة الفتح : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾ [الفتح : ٨ - ٩] ولم يقل (وداعيًا إلى الله) كما قال في الأحزاب فما الفرق ؟

والجواب : أن آية الفتح ليست في سياق الدعوة وإنما هي في سياق القتال والبيعة على ذلك ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ ﴾ . ومن معاني التعزير النصر بالسيف ، جاء في (لسان العرب) : « العزr : النصر بالسيف ، وعزره عزراً وعزّره : أعانه وقوّاه ونصره ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ۚ ﴾ . جاء في التفسير (أي لتنصروه بالسيف) ، ومن نصر النبي ﷺ فقد نصر الله عز وجل . وعزرتموهم : عظمتموهم . وقيل نصرتموهم»^(١) .

وقال بعدها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْمُرُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ﴾ [الفتح : ١٠] .

ويستمر الكلام في هذا السياق إلى آخر السورة ، بل إن السورة كلها إنما هي في سياق القتال .

وأما آية الأحزاب فهي سياق التبليغ ، فقد قال قبل الآية : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ .

قال عنه إنه سراج ولم يقل شمس ؛ ذلك أن السراج أعم ، فقد سمي الشمس سراجًا ، فقد قال سبحانه : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح : ١٦] . ثم إن الشمس تغرب والسراج لا يغرب . والشمس لا يقتبس منها والسراج يقتبس منه ، والشمس لا تنقل والسراج ينقل إلى حيث نريد ، والشمس لا تكون في كل مكان والسراج يكون في كل مكان ، والشمس لا تكون منها شمس والسراج يكون منه سُجج كثيرة وغير ذلك .

جاء في (تفسير الرازي) : «قال في حق النبي سراجًا ولم يقل إنه شمس مع أنها أشد إضاءة من السراج لفوائد :

منها أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة ، فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه وكذلك إن غاب»^(١) .

وليس صحيحًا ما قاله إن الشمس أشد إضاءة من السراج ، فإن السراج أعم وإن الشمس سراج كما ذكر سبحانه ، فكان جعله ﷺ سراجًا أولى من جعله شمسًا لأكثر من سبب كما ذكر . والله أعلم .

٣٣ - قال سبحانه في سورة سبأ : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣] .

دلت الآية على أن الشكر لا يكون باللسان وحده ، وإنما يكون بالعمل فقال لهم تعالى : اعملوا الشكر .

فمن لم يعمل ما يجب عليه من الشكر فليس بشاكر ولو قال بلسانه آلاف المرات (أشكر الله) ، وشكر الله يكون بفعل ما يجب عليه من الطاعات .

فمن كان له مال فشكره أن يؤدي حقه .
ومن كان عنده علم فشكره أن ينشره ولا يكتمه ، فمن كتبه فليس
بشاكر ولو قال آلاف المرات : أشكر الله تعالى على هذه النعمة .
وهكذا فالشكر يكون بالعمل مع الذكر باللسان .

فالشكر بهذا المعنى مفعول به ، ويصح أن يكون مفعولاً له أو مفعولاً
مطلقاً ، وكل ذلك مطلوب ، فطلب منهم عمل الشكر ، والعمل لأجل
الشكر ، وأن يشكروه شكرًا ، أو على تأويل الحال ، أي : اعملوا شاكرين .
جاء في (روح المعاني) : ﴿ اَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ «شكرًا نصب على
أنه مفعول له ، وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء
والخوف ، أو على أنه مفعول مطلق لا عملوا ؛ لأن الشكر نوع من
العمل ، أو على أنه حال بتأويل اسم الفاعل ، أي : اعملوا شاكرين . لأن
الشكر يعم القلب والجوارح ، أو على أنه مفعول به لا عملوا ، فالكلام
كقولك (عملت الطاعة)»^(١) .

وعلى أي توجيه يدل ذلك على اقتران الشكر بالعمل .

٣٤ - قال تعالى في سورة يس : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَكِيهُونَ ﴾ [يس : ٥٥] .

وقوله : ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ إشارة إلى أن الإنسان قد يملّ من الفراغ ، فذكر
سبحانه أنهم في شغل .

ثم إن الشغل المرهق متعب وممل فقال : ﴿ فَنَكِيهُونَ ﴾ أي ملتذون به
مستمتعون .

وانظر هذه الآية في تفسيرنا لسورة يس^(٢) .

(١) روح المعاني ٢١/ ١٢٠ .

(٢) على طريق التفسير البياني ج ٢/ ٢٠٠ - ٢٠٢ .

٣٥- قال تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ ﴿٣١﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

قال: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ولم يقل: (عند ربك) ؛ وذلك لأن القاضي ينبغي أن يكون على مسافة واحدة من المتخاصمين ولا تكون له علاقة بأحد المتخاصمين دون الآخر ، والمخاطب في الآية - وهو الرسول - أحد المتخاصمين ، فقال سبحانه: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فأضاف الرب إلى ضمير المتخاصمين جميعاً ولم يصفه إلى واحد منهم .

ومن الملاحظ في القرآن الكريم أنه لم يصف الرب إلى ضمير المخاطب إذا كان المخاطب مشتركاً مع غيره في الفصل والقضاء أو الاختلاف بأن يكون واحداً منهم ، وإنما يضيفه إلى ضمير المخاطبين أو يأتي بلفظ الجلالة (الله) ؛ وذلك لأن لفظ الجلالة لا يخص واحداً دون آخر . وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ، وقوله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩] ، وذلك لأن المخاطب مشترك معهم في الاختلاف .

وقد يأتي بالإضافة إلى ضمير المخاطب إذا لم يكن المخاطب أحد المتخاصمين أو المختلفين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣] ، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨] ، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥] ، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤] فقال فيها (ربك) لأن المخاطب غير مشترك معهم في الاختلاف ، فإنه قال فيها (بينهم) لا (بينكم).

أو قد يأتي باسم الجلالة كما ذكرت وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧] .

وهذا من لطائف التعبير في القضاء والحكم والفصل .

٣٦ - قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَعْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] .

وقال في سورة النجم: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] .

فاستثنى اللمم في آية النجم فقال (إلا اللمم) ولم يذكر اللمم في آية الشورى .

ذلك أنه قال في آية النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فشملت سعة مغفرته اللمم وهي صفات الذنوب إذا اجتنبت الكبائر . وهذا من رحمته سبحانه بعباده .

ثم من ناحية أخرى أنه قال سبحانه قبل آية النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] .

فذكر أنه يجزي الذين أساءوا بما عملوا ، وهذا يعم الإساءة بالعمل صغيرها وكبيرها ، فبين سبحانه أنه يستثنى اللمم إذا اجتنبت كبائر الإنم والفواحش ، والفواحش ما عظم قبحه من الكبائر^(١) .

ولم يذكر نحو ذلك في سياق آية الشورى .

جاء في (روح المعاني): ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر

باجتناب الكبائر ، فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبية على أن إخراجهم عن حكم المؤاخذه ليس لخلوه عن الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية^(١) .

٣٧ - قال تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٧] .

وقوله: ﴿ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني به سيدنا موسى عليه السلام .

ولم يقل (رسول مبین) في سيدنا موسى في القرآن الكريم ؛ ذلك لأنه كانت في لسانه عقدة دعا ربه أن يحلها فقال: ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨] ، وقال: ﴿ وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَٰؤُلَاءِ ﴾ [الشعراء: ١٣] .

وقال فرعون عن سيدنا موسى: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُبُنِي ۖ ﴾ [الزخرف: ٥٢] .

في حين وصف سيدنا نوحاً بالإبانة فقال فيه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٢٥] .
وقال فيه أيضاً: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [نوح: ٢] .

ووصف سيدنا محمداً بالإبانة في مواطن عدة من القرآن الكريم فقال: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان: ١٣] ، وقال: ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۚ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠ - ٥١] ، وقال: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر: ٨٩] .

وغير ذلك .

وسبحان الله رب العالمين .

٣٨ - قال تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿فَاسْرِعْ بَعْدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (١٢) وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِيَّاهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿١٣﴾ [الدخان: ٢٣ - ٢٤] .

وفيه دلالة على ضرورة الأخذ بالأسباب حتى لو كان عنده علم بعاقبة الأمر ولو أخبره رب العزة بذلك .

فإن الله سبحانه أخبر نبيه بأنهم متبعون وأن الذين يتبعونه مغرقون ومع ذلك طلب منه الإسراء ليلاً ، وهو وقت الظلمة والتخفي ، وذلك للأخذ بالأسباب حين يطلب الشخص النجاة من عدوه ، وإلا فما الفرق بين سيره نهاراً وإسرائه ليلاً إذا كان أعداؤهم مغرقين لا محالة كما أخبره ربه بذلك؟ وفيه تعليم لعباده سبحانه بضرورة الأخذ بالأسباب على أية حال .

وشبه بهذا ما فعله سيدنا محمد حين هاجر من مكة إلى المدينة ، فقد أخذ بكل أسباب الحيطة والتخفي .

وينبغي أن لا يقول الشخص: إذا كان الأمر مقدراً لي فإن المقدور حاصل ولو أخذت بكل الأسباب ، بل ينبغي أن يأخذ بالأسباب ولو علم النتيجة ، بل ولو أخبره ربه بها . ولذلك أمر ربنا بالاحذر فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] .

كما أمر ربنا عباده المؤمنين عند القتال بالأخذ بالاحذر حتى أن صلاة الخوف تختلف عن الصلاة في الأمن . قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْعِيَتِكُمْ فَيُمْبِلُونَ عَلَيْكُمْ مِّمْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢] .

فقد أمر ربنا في الآية بالأخذ بالحدز مرتين فقال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَحُذُّوا حِذْرَكُمْ﴾ .

وفيه دلالة عظيمة على ضرورة الأخذ بالأسباب وعدم الاتكال على القدر ، فإن المقدور لا يعلمه إلا الله .

وقريب من ذلك ما ذكره ربنا سبحانه عن العسل أن فيه شفاء للناس فقال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] ، وجعل ذلك من نعمه سبحانه ، وفيه إشارة إلى طلب الشفاء والتداوي والأخذ بأسباب الشفاء .

وكل ذلك وغيره إشارات إلى ضرورة الأخذ بالأسباب .

٣٩ - قال سبحانه في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْفَائِزِينَ﴾ [التحريم: ١٢] .

فقال سبحانه: ﴿وَكَاثَ مِنَ الْفَائِزِينَ﴾ ولم يقل (وكانت من الفائزات) ، وذلك للزيادة في تكريمها ، فإن القنوت في الذكور أتم وأعلى مما في الإناث ، فإن فيهم الأنبياء والرسل ، بخلاف الإناث . قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] .

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٤٣] .

فذكر أنها من القانتين زيادة في تكريمها . جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿وَكَاثَ مِنَ الْفَائِزِينَ﴾ أي من عداد المواظبين على الطاعة ، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى

عُدَّتْ مِنْ جَمَلَتَهُمْ»^(١). «فهو أبلغ من قولنا (وكانت من القانتات) أو قانته»^(٢).

٤٠ - قال سبحانه في سورة المعارج: ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِ بِنِيهِ ۖ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُهَا ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١١-١٤].

فلم يذكر الوالدين وذلك لعظيم منزلتهما عند الله ، فإنه لا يجزئ أن يذكر الافتداء بهما ، فإن ذلك مما يزيد غضب الله عليه ، فإن الذي يفتدي إنما يفتدي بما يرضي صاحب الأمر لا بما يغضبه . وقد أمر الله بالإحسان إلى الوالدين وإكرامهما كما قال سبحانه ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٣) في أكثر من موضع .

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] .

فلو ذكر الافتداء بهما لقال له ربه: (أهذا ما أمرتك به؟)

(أتغضبي وأنت بين يدي ، أتعصيني وتخالف أمري في مواجعتي يا مجرم؟!)

فلا يجزئ أن يذكرهما في هذا الموقف .

وفي هذا دلالة عظيمة على منزلة الوالدين عند الله .

قد تقول: ولكنه ذكرهما في عبس فقال: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُخِيهِ ۖ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦] .

فما الفرق؟

(١) تفسير أبي السعود ٦/٣٤٦ .

(٢) روح المعاني ٢٨/١٦٥ .

(٣) انظر: البقرة ٨٣ ، النساء ٣٦ ، الأنعام ١٥١ ، الإسراء ٢٣ .

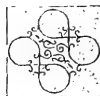
ومن الواضح أن الفرق بينهما ظاهر يتن ، فما في سورة المعارج في سياق الافتداء بهما لينجو من النار .

وأما ما في عبس ففي سياق الفرار ليدخل المرء إلى نفسه ، فإن لكل امرئ في ذلك شأنًا يغنيه . وليس في هذا معصية ولا إهانة لهما ، فإن الإنسان قد يمر في مواقف يريد أن يدخل بنفسه ولا شيء في هذا .
فاختلف الأمران .

ونكتفي بهذا القدر ههنا .



الالتفات



هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر كالانتقال من التكلم إلى الخطاب أو إلى الغيبة ، أو من الخطاب إلى التكلم أو إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى التكلم أو إلى الخطاب .

قالوا : وذلك تطرية للسامع وتجديداً لنشاطه وصيانة له من الملل . وله أغراض أخرى كالتعظيم والتوبيخ وقصد العموم والمبالغة وغير ذلك من الأغراض^(١) .

جاء في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن الالتفات في علم البيان «قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس : ٢٢] ، وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقَنَهُ﴾ [فاطر : ٩] .

وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات :

تطاول ليلك بالإثم	ونام الخلي ولم ترق
وبات وباتت له ليلة	كليلة ذي العائر الأرم
وذلك من نبأ جأني	وخبرته عن أبي الأسود

(١) انظر البرهان للزركشي ٣/ ٣١٤ وما بعدها .

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد .
وقد تختص مواقعه بفوائد^(١) .

ومن أمثلة ذلك أن يتوسط عند أمير المؤمنين ليعفو عن معتدين فيقول لهم: أمير المؤمنين لا يرضى بالعدوان ولا يحكم إلا بالعدل . يعني نفسه ، ولا يقول: أنا لا أرضى بالعدوان ، وإنما ذكر صفته النافذة .

أو كأن يُعْتَدَى على جندي فيقول قائد الجيش: قائد الجيش لا يرضى بإهانة أحد جنده وسترون ما يفعله . ولا يقول: أنا لا أرضى بإهانة أحد جنودي وإنما يذكر صفته المقتدرة .

وهو قد يستعمل عندنا في العامة ، وذلك كأن يقول شخص لأخيه وقد فعل فعلاً يراه كبيراً: (انظر كيف فعل أخوك) يعني نفسه ، أو يسأله أخوه عمن فعل هذا الفعل فيقول له: (هذا ما فعله أخوك) أو (هذا ما فعله أبو الوليد) يعني نفسه .

والالتفات في القرآن كثير ، فهو قد ينتقل من التكلم إلى الخطاب أو إلى الغيبة ، أو من الخطاب إلى غيره ، أو من الغيبة إلى آخر ، بحسب الغرض الذي يراد منه .

ومن ذلك :

١ - قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .

(١) الكشف ٤٩/١ - ٥٠ وانظر الإيضاح للخطيب القزويني ٧٢ - ٧٣ .

فالتفت من ضمير المتكلم للتعظيم إلى ذكر الاسم الجليل فقال أولاً: (فضلنا) ، ثم قال: ﴿مَنْ كَلَّمَ اللَّهَ﴾ إشارة إلى عظم هذا التفضيل ، وليس كتفضيل بعضهم على بعض . وعطف على ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ يعود الضمير على الله بالافراد . ورفع الدرجات ليس كمجرد التفضيل ، فكان الالتفات هنا من لطيف المناسبة .

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «وفي إيراد الاسم الجليل بطريق الالتفات تربية للمهابة ورمز إلى ما بين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما لحق من إيتاء البيئات والتأييد بروح القدس من التفاوت» (١) .

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] .

فالتفت من ضمير التعظيم للمتكلم إلى اسمه الجليل على طريق الالتفات ولم يقل (وكلمنا) كما قال في (أوحينا) و(قصصناهم) للإشارة إلى ما بين التكليم وبين الإيحاء الذي فعله ربنا مع عموم النبيين من التفاوت . ويدل على ذلك المحيي بالمصدر المؤكد في قوله (تكليماً) .

٢ - قال تعالى في آل عمران: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادُ﴾ [آل عمران: ٩] .

فالتفت من الخطاب إلى الغيبة فقال أولاً: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ ، ثم قال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادُ﴾ ولم يقل (إنك لا تخلف الميعاد) ، مع أنه قال في الآية قبلها: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ

أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨] فلم يلتفت ، فقال : ﴿ لَا تُرِغْ ﴾ بالخطاب ﴿ وَهَبْ لَنَا . . . إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ذلك - والله أعلم - أن قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ من الدعاء الذي دعوا به لأنفسهم فذكروا صفته .

وأما قوله : ﴿ إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ فهو أمر عام لا يخصهم ، وإنما هو يعم جميع الخلق فذكروه باسمه العلم ، فهو جامع الناس مؤمنهم وكافرهم .

وأما الآية الأخرى فهو طلب خاص بهم دعوه لأنفسهم ، فاستمر الخطاب بلفظ الربوبية المضاف إليهم .

ومما يدل على ذلك قوله سبحانه في آخر السورة : ﴿ رَبَّنَا وَآئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رَسُولِكَ وَلَا نُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] وهو من دعاء أولي الألباب لأنفسهم .

فكان الدعاء بالخطاب في قوله : ﴿ وَلَا نُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ فلم يلتفت ، وإنما هو دعاء باسم الرب المضاف إليهم لأنه خاص بهم . في حين قال في الآية التاسعة : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ ولم يذكر دعاء لهم ، فكان كل تعبير مناسباً لموضعه الذي ورد فيه .

ويحتمل أن قوله سبحانه ﴿ إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ إنما هو قوله سبحانه وليس قولهم .

جاء في (البرهان) للزركشي : «فإن قلت : قد قال في آخر السورة : ﴿ وَلَا نُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ فلم عدل عن الخطاب هنا؟

قلت : إنما جاء الالتفات في صدر السورة لأن المقام يقتضيه . فإن الإلهية تقتضي الخير والشر لتتصف المظلومين من الظالمين ، فكان العدول إلى ذكر الاسم الأعظم أولى .

وأما قوله تعالى في آخر السورة: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ أَلْعَادَ﴾ فذلك المقام مقام الطلب للعبد من ربه أن ينعم عليه بفضله وأن يتجاوز عن سيئاته ، فلم يكن ما يقتضي العدول عن الأصل المستمر^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾ ظاهر العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدل على الاستئناف وأنه من كلام الله تعالى لا من كلام الراسخين الداعين . . .

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الداعين ويكون ذلك من باب الالتفات ، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة لما في ذكره باسمه الأعظم من التفخيم والتعظيم والهيبة ، وكأنهم لما والوا الدعاء بقولهم (ربنا) أخبروا عن الله تعالى بأنه الوفي بالوعد ، وتضمن هذا الكلام الإيمان بالبعث والمجازاة والإيفاء بما وعد تعالى»^(٢) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾ . . . وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيّب الهائل ، بخلاف ما في آخر السورة الكريمة ، فإنه مقام طلب الإنعام . . . وللإشعار بعلّة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف .

وقد جُوّز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين»^(٣) .

٣ - قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

(١) البرهان ٣/ ٣٣١ .

(٢) البحر المحيط ٢/ ٣٨٧ .

(٣) تفسير أبي السعود ١/ ٤٤٢ .

جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿النساء: ٦٤﴾ .

فالتفت من المخاطب إلى الغائب ، فقد قال أولاً : (جاؤوك) بالخطاب ، ثم قال ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل (واستغفرت لهم) ، وذلك لتعظيم منزلة الرسول وأن استغفاره ليس كاستغفار غيره فجاء بصفة الرسول للتعظيم . جاء في (الكشاف) : «ولم يقل (واستغفرت لهم) وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وتنبهها على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان»^(١) .

ولذا - والله أعلم - قال في موطن آخر : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] بضمير الخطاب ، ولم يقل (سواء عليهم أستغفر لهم الرسول أم لم يستغفر لهم) تعظيماً لصفة الرسول من أن يُرَدَّ استغفاره . فإنه لما ذكر صفة الرسول قال : ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ولما أراد نفي المغفرة لهم جاء بضمير الخطاب ولم يأت بصفة الرسول .

وقد تقول : وما الفرق بين الاستغفارين؟ ولماذا قال في الأولى : ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ مع أن المستغفر واحد؟

والحقيقة أن الفرق بين السياقين ظاهر ، ذلك أنه ذكر في الآية الأولى أنهم جاؤا نادمين يطلبون مغفرة الله ، فقد قال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ ، وأما الآية الأخرى فذكر فيها أنهم : ﴿يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] .

(١) الكشاف ١/٤٠٥ وانظر البرهان للزركشي ٣/٣٢٨ ، البحر المحيط ٣/٢٨٣ .

فالفرق ظاهر ، فجعل كل تعبير في مكانه المناسب . وهو من لطيف التعبير .

٤ - قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

فالتفت من الكلام على الغيبة إلى المتكلم بضمير العظمة . فقد قال أولاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ثم التفت إلى المتكلم قائلاً عن نفسه سبحانه: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ ليدل على أن الذي قال الكلام هو الله الذي فعل ذلك وليس ذلك إخباراً من جهة أخرى ، ويدل ذلك على أن القرآن إنما هو كلام الله ، فقد أخبر هو عن نفسه سبحانه .

وهذا ما يفيد عموم الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم عن نفسه سبحانه .

فهو يدل على أن الكلام كلامه سبحانه وأنه هو الذي يقول ذاك .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يدل بهذا الالتفات على عظيم النعمة بإنزال الماء .

جاء في (روح المعاني): «والالتفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله»^(١) .

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩] .

٥ - جاء في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِئْتُوا لِلَّهِ

وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٨] .

فالتفت من المتكلم إلى الغائب فقد قال أولاً: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل (فآمنوا بالله وبى) وذلك لأكثر من غرض ، فقد قال قبل الآية: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ . . . فَأَذْنِبَتْ أَعْمَانُ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

فذكر الصفات التي سبق ذكرها في الآية السابقة ليدل على أنه هو المقصود والمبشر به . ثم عدل عن ضمير المتكلم إلى صفة الرسالة ليدل على أنه استحق الإيمان بهذا الوصف فآمنوا به لكونه رسول الله .

ثم من ناحية أخرى عدل عن ضمير المتكلم ليصفه بالصفات التي تدعو إلى الإيمان به . ولو قال (فآمنوا بالله وبى) لم يصح وصف الضمير ، فإن الضمير لا يوصف فلا يصح أن يقال (فآمنوا بالله وبى النبي الأمي) .

وثمة لطيفة أخرى فإنه قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل (وبرسوله) ليدل على أن مرتبة الإيمان بالرسول بعد الإيمان بالله ، ولم يجعلهما بمرتبة واحدة ، فإن قولنا: (فآمنوا بالله وبرسوله) أكد من قولنا: (فآمنوا بالله ورسوله) فإن إعادة حرف الجر فيها تأكيد ، فدل التعبير القرآني على أن مرتبة الإيمان بالرسول تابعة لمرتبة الإيمان بالله فحذف الباء ، ولذا لا نجد في القرآن الكريم نحو (آمنوا بالله وبرسوله) أو (تؤمنون بالله وبرسوله) ولا نحو (فآمنوا بالله وبرسله) وإنما كلها بحذف الباء من الرسول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] ، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢] ، وقوله:

﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [المجادلة: ٤] ، وقوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الصف: ١١] ، وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٥٢] .

قد تقول: ولكنه ورد: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤] .

فنقول: إننا نفينا ورود ذلك في التعبير بالإيمان وليس بالكفر ، والتعبير بالكفر يختلف عن التعبير بالإيمان فقد يكون الكفر بالرسول أكثر وأشد ، فقد يكون ثمة من يؤمن بالله ويكفر بالرسول . ولكن لن يكون إيمان بالرسول وكفر بالله ؛ لأن الرسول إنما هو رسول الله .

وقد ورد التعبيران بالكفر بالله والرسول بذكر الباء وعدمه مع الرسول ، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] ، وقال ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] .

ومن المعلوم أن القول: (كفر بالله وبالرسول) أكد من القول: (كفر بالله والرسول) ؛ وذلك لأن الذكر يفيد التوكيد .

ومن الواضح أن الآية الرابعة والخمسين من التوبة أكد في الكفر من الآيتين الأخريين . فقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٥٣] وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣ - ٥٤] فذكر الباء مع الرسول .

في حين قال في الآية الثمانين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] فذكر الكفر بالله ورسوله .

فقد زاد في أوصافهم في الآية الرابعة والخمسين بأنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ، فاقضى ذلك الزيادة في وصفهم بالكفر .

ونحو ذلك ما ورد في الآية الرابعة والثمانين ، فقد قال فيها : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

فقد ذكر أنهم كفروا بالله ورسوله وأنهم ماتوا وهم فاسقون .

وذكر ذلك وزيادة في سياق الآية الرابعة والخمسين ، فقد وصفهم بالفسق ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ ، وذكر أنهم كفروا بالله وبرسوله ، وزاد في أوصافهم فقال : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾ [التوبة : ٥٤] فاقضى ذلك التوكيد في الآية الرابعة والخمسين .

وهذا من دقائق التعبير .

جاء في (الكشاف) في آية الالتفات ، أعني قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَتَّيْبَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ . . . ﴾ : «فإن قلت : هلا قيل (فآمنوا بالله وبي) بعد قوله : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ؟

قلت : عدل عن المضمّر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ، ولما في طريقة الالتفات من مزايا البلاغة ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه» ^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «لما ذكر أنه رسول الله أمرهم بالإيمان بالله ، وعدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وأنه هو المأمور باتباعه الموجود بالأوصاف السابقة»^(١).

وجاء في (روح المعاني): «ولا يخفى ما في هذه الآية من إظهار النصفة والتفادي عن العصبية للنفس وجعلوا ذلك نكتة للالتفات»^(٢).

وجاء في (البرهان) للزركشي: «وقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل (بي) وله فائدتان:

أحدهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

والثاني: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة والأمية التي هي أكبر دليل على صدقه وأنه لا يستحق الاتباع لذاته بل لهذه الخصائص»^(٣).

٦ - قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّهِمْ إِذَا لَهُم مَّكْرُفٌ ءَايَانًا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ثم التفت إلى ضمير العظمة فقال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ولو لم يلتفت لقال: (قل الله أسرع مكرًا إن رسله يكتبون ما تمكرون) لكنه أراد أن ينتهي تبليغ الرسول بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ثم التفت فأخبر عن نفسه سبحانه.

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٠٥.

(٢) روح المعاني ٩/ ٨٣.

(٣) البرهان ٣/ ٣١٧.

ولو لم يلتفت لاحتمل الكلام أكثر من معنى ، من ذلك :

أن يكون القول (إن رسله يكتبون ما تمكرون) من جملة ما أمر الرسول أن يقوله فيكون الرسول مأمورًا أن يقول: (الله أسرع مكرًا إن رسله يكتبون ما تمكرون).

والآخر: أن يكون الرسول مأمورًا أن يقول: (الله أسرع مكرًا) ، وأما القول: (إن رسله يكتبون ما تمكرون) فإنما هو جملة مستأنفة .

وأما قوله: ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فإنما هو كلام الله عن نفسه حصراً .

وهذا التهديد أشد ، فإن تهديد المتكلم للمخاطب أشد من تهديد الغائب .

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ سَسِيمٍ﴾ ، وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَحَ بِهَا وَإِنْ نَضِيبُ سَيِّئَةٍ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] فأكد فاعل الإذاقة بـ (إن) فقال: (وإنّا) ولم يؤكد في آية يونس فلماذا؟

والجواب: أن ذلك لأكثر من سبب .

فإنه ذكر في آية الشورى أن الرحمة منه فقال: (منا رحمة) للتخصيص ، أي أن الرحمة منه خاصة وليست من غيره . فناسب ذلك التوكيد في آية الشورى فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا﴾ .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن الكلام في آية يونس على الناس فقد قال قبل الآية: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا...﴾ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس: ١٩ - ٢٠] .

وقال بعد الآية: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرْجٌ طَبَقَهُ وَفَرِحُوا بِهِ﴾ [يونس: ٢٢] ويستمر الكلام على الناس.

في حين أن الكلام في آية الشورى على الله فقد قال قبل الآية: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧].
وقال بعدها: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٩].

فناسب أن يؤكد بـ (إن) الداخلة على ضمير التعظيم (نا) ، وناسب أن يذكر الرحمة منه خاصة ، فإن له ملك السماوات والأرض .

ومن لطيف التناسب أن كل آية تناسب مبتدأ السورة التي هي فيها ، فقد بدأ سورة يونس في الكلام على الناس فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢] .

ومبتدأ سورة الشورى في الكلام على الله فقد قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٣-٤] .

فناسب ذكره سبحانه لنفسه في أول الآية وتوكيده أي (وإننا . . .)

ثم إن كل تعبير مناسب لخاتمة السورة التي هو فيها .

فخاتمة سورة يونس في الكلام على الناس فقال: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] .

وخاتمة سورة الشورى في الكلام على الله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ
مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

٧- جاء في سورة يونس : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَلْبَرِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ
مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا أُنجَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴾ [يونس: ٢٢]

- [٢٣] .

فالتفت من الخطاب إلى الغيبة فقد قال أولاً : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَلْبَرِ
وَالْبَحْرِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، ذلك أنه خاطبهم أولاً
لأنهم كانوا حاضرين ، ثم لما جرت بهم الفلك صاروا غائبين ، فأخبر
عنهم ليبين حالهم ويعجب من أمرهم ويقبح ما آل إليه أمرهم . جاء في
(الكشاف) : «فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟

قلت : المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم
الإنكار والتقيح» ^(١) .

وجاء في (البحر المحيط) : «والذي يظهر - والله أعلم - أن حكمة
الالتفات هنا هي أن قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَلْبَرِ وَالْبَحْرِ ﴾ خطاب فيه امتنان
وإظهار نعمة للمخاطبين .

والمسترون في البر والبحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل ، فحسن
خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر ، ولعل الطالح يتذكر هذه

النعمة فيرجع ، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي»^(١).

وجاء في (البرهان) للزركشي: «فقد التفت عن (كنتم) إلى (جرين بهم) وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم لتعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة.

وقيل: لأن الخطاب أولاً كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم بدليل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فلو قال (وجرين بكم) للزم الذم للجميع ، فالتفت عن الأول إلى الإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم»^(٢).

وجاء في (روح المعاني): «وضمير (بهم) لمن فيها وهو التفات للمبالغة في تقبيح حالهم كأنه أعرض عن خطابهم وحكى لغيرهم سوء صنيعهم»^(٣).

٨ - قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٨٩] .

فالتفت من الغيبة بقوله: (وقالوا) إلى الخطاب بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ولم يقل: (لقد جاؤا) فالتفت إليهم وخاطبهم ووبخهم على قولهم . والتوبيخ بالخطاب أبلغ من التوبيخ بالغيبة ، والإد العظيم المنكر . جاء في (البحر المحيط): «أي قل لهم يا محمد: لقد جئتم ، أو

(١) البحر المحيط ١٣٨/٥ - ١٣٩ .

(٢) البرهان ٣/٣١٨ .

(٣) روح المعاني ٩٦/١١ .

يكون التفاتاً خرج من الغيبة إلى الخطاب زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله ، والتعرض لسخطه ، وتنبية على عظيم ما قالوا»^(١) .

وجاء في (روح المعاني) أنها «ردّ لمقاتلهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة» .

وقيل : لا التفات ، والكلام بتقدير قل لهم : لقد جئتم^(٢) .

وجاء في (البرهان) للزركشي : «ولم يقل (لقد جاؤا) للدلالة على أن من قال مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخاً عليه منكرًا عليه قوله كأنه يخاطب به قومًا حاضرين»^(٣) .

٩ - جاء في سورة الروم : ﴿ وَمَا أَلَيْسَ مِنِّ زَكُورٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] .

فالتفت من المخاطبين إلى الغائبين ، فقد قال أولاً : ﴿ وَمَا أَلَيْسَ مِنِّ زَكُورٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ . ولم يقل (فأنتم المضعفون) وذلك ليشمل كل من فعل ذلك ولا يخص المخاطبين .

جاء في (الكشاف) : «قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه (فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون) فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون» .

(١) البحر المحيط ٦/٢١٨ .

(٢) روح المعاني ١٦/١٣٩ .

(٣) البرهان ٣/٣٢٢ - ٣٢٣ .

ووجه آخر وهو أن يكون تقديره : فمؤتوه أولئك هم المضعفون .
والحذف لما في الكلام من الدليل عليه . وهذا أسهل مأخذاً ، والأول
أملاً بالفائدة^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «والالتفات عن الخطاب حيث قيل
(فأولئك) دون (فأنتم) للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم
السلام وخواص الخلق تعريفاً لحالهم .

ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بأن يقصد بـ (أولئك) هؤلاء
وغيرهم»^(٢) .

١٠ - قال تعالى في سورة الزخرف : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
تُحِبُّونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِيَ الْأَنْفُسُ
وَلَكِنَّ الْأَعْيُنَ لَا رَأْيَ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿[الزخرف : ٧٠-٧٣] .

لقد خاطبهم أولاً بقوله : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحِبُّونَ ﴾ ثم
التفت إلى الغيبة فقال : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ ، وذلك أنه
خاطبهم أولاً فأمرهم بدخول الجنة ، ثم ذكر حالهم وهم في الجنة فأخبر
عنهم بقوله ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ ولم يقل (يطاف عليكم) فيكون من جملة
ما خاطبهم به قبل الدخول وإنما أخبر عنهم بعد دخولهم .

ثم قال مخاطباً لهم : ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ إتماماً للنعمة وزيادة في
السرور ولم يقل (وهم فيها خالدون) بل خاطبهم بذلك لزيادة مسرتهم ،
ولأن هذا ما يقرره الرحمن وحده لا غيره . جاء في (تفسير أبي السعود) :

(١) الكشف ٥١٠/٢ .

(٢) روح المعاني ٤٦/٢١ .

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به . . . ﴿وَأَسْفَرُ فِيهَا خَلِيدُونَ﴾ إتمام للنعمة وإكمال للسرور . . . والالتفات للتشريف» (١).

١١ - قال تعالى في سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٣﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣-٦] .

فالتفت من ضمير المتكلم للتعظيم إلى الاسم الظاهر ، فقال أولاً: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ . . . إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ . . . إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بضمير التعظيم ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ .

ولو لم يلتفت لقال (رحمة منا) .

وقد بين الالتفات أن الذي فعل ما ذكر من إنزال الكتاب وغيره هو ربه ، وربه هو رب السماوات والأرض وما بينهما كما قال سبحانه في السياق: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٦ - ٧] وأنه هو الإله الذي لا إله إلا هو ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨] .

ثم قال ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ فذكر أن الرحمة من ربه إشعاراً بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين .

وإنه أضاف الرب إلى ضمير الرسول ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وإشارة إلى أن إرساله ﷺ إنما هو رحمة للعالمين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

جاء في (الكشاف): ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ والأصل:

إنا كنا مرسلين رحمة منا ، فوضع الظاهر موضع المضمّر إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين . . .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه^(١) .

وجاء في (البرهان) للزركشي: «أصل الكلام: (إنا كنا مرسلين رحمة منا) ولكنه وضع الظاهر موضع المضمّر للإنذار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم أو لتخصيص النبي ﷺ بالذكر أو الإشارة إلى أن الكتاب إنما هو إليه دون غيره ، ثم التفت بإعادة الضمير إلى الرب الموضوع موضع المضمّر للمعنى المقصود من تميم المعنى^(٢) .

وجاء في (روح المعاني): «وقوله سبحانه: ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير ، والأصل (منا) فجيء بلفظ الرب مضافاً إلى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه تخصيص الخطاب به صلى الله تعالى عليه وسلم تشريعاً له عليه الصلاة والسلام ودلالة على أن كونه سبحانه ربك وأنت مبعوث رحمة للعالمين مما يقتضي أن يرسل الرحمة^(٣) .

١٢ - قال تعالى في سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَيُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۖ ﴾ [الفتح: ١ - ٣] .

فالتفت من التكلم بنون العظمة إلى الاسم الظاهر ، فقال أولاً: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ ثم قال: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ليبين بذكر الاسم الجليل أن الذي فتح له إنما هو الله ؛ إذ لربما ظن ظان أن الذي فتح له هو ما عنده من الأتباع

(١) الكشف ١٠٦/٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/٣٢٩ .

(٣) روح المعاني ٢٥/١١٥ .

والجنود فأخبره ربه بأن الذي فتح له إنما هو الله وهو الذي نصره لا غيره .
ثم إن خطابه بقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ بصيغة ضمير العظمة للمتكلم يدل
على أن الذي يخاطب محمداً هو الله ، وأن المخاطب رسوله ، يخبره
سبحانه بما يريد .

إن هذا الالتفات فيه إشارتان : إشارة إلى أن الذي فعل ذلك هو الله ،
وأن الله خاطبه بذلك وأخبره فدل على أنه رسوله .

ثم إنه بعد أن قال له : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ودلالة ذلك على الرسالة
ضمناً ذكر ذلك تصريحاً بقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾
[الفتح : ٨] فبين بهذه الآية تصريحاً ما أشارت إليه الآية الأولى ضمناً .

جاء في (البرهان) : «وقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ وَلَمْ
يَقُلْ (لنُغْفِرْ لَكَ) تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه
الحسنى ولهذا علق به النصر فقال : ﴿ وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾»^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «يمكن أن يكون في إسناد المغفرة إليه
تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة
مما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط .

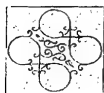
وقد صرح بعضهم بأن عادة العظماء أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة
المتكلم مع الغير لأن ما يصدر عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم»^(٢) .

* * *

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٦ .

(٢) روح المعاني ٩١/ ٢٦ .

سورة محمد



وتسمى سورة القتال أيضا

إن الطابع الذي طبعت به السورة هو ذكر الأعمال للذين كفروا وللذين آمنوا وعاقبة ذلك ولم تكد تخرج السورة عن ذلك ، فقد قال في الآية الأولى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ [محمد: ١] .

والآية الثانية هي قوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢] .

فذكر في الآية الأولى الذين كفروا وعملهم وهو الصد عن سبيل الله ، وذكر عاقبة عملهم وهي أنه سبحانه ﴿ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ .

وذكر في الآية الثانية الذين آمنوا وعملهم وهو الصالحات ، وذكر عاقبة ذلك وهي أنه كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

وقد علل سبب ذلك في الآية الثالثة فقال : ﴿ ذَلِكَ يَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [محمد: ٣] .

فذكر أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، والاتباع إنما هو عمل .

وذكر أن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وهكذا سائر الآيات ، فإنها في أعمال كل فريق والجزاء على ذلك .

ومن الظاهر أن أول هذه السورة مرتبط بآخر السورة التي قبلها ، فإنه

«لا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسمة لكانا متصلًا واحدًا لا تنافر فيه كآية الواحدة آخذًا بعضه بعنق بعض» (١).

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١].

* * *

قوله: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون معناه أعرضوا عن الإسلام وامتنعوا عن الدخول فيه ، ويحتمل أن يكون معناه صدوا غيرهم عنه ومنعواهم (٣).

فإن الفعل (صدّ) قد يكون لازماً ومصدره (الصدود) ، قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] ، ويكون متعدياً ومصدره (الصد) قال تعالى: ﴿وَيَصِدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] . والمعنيان مرادان ، فكلا الصنفين أضل الله أعماله .

(١) روح المعاني ٣٦/٢٦.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/١٠ ، وانظر كتابنا (التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم ١٤١ - ١٤٢).

(٣) انظر الكشف ٣/١٢٦ ، البحر المحيط ٦/٧٣ ، التفسير الكبير للرازي ٣٢/١٠.

وقوله ﴿ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأحبطها^(١) فجعلها ضائعة ليس لها ثواب «وحقيقة جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها»^(٢)، ذلك أنه قد كان أو يكون للكافر أعمال فاضلة من تنفيس عن مكروب وإعانة محتاج وصلة رحم وغير ذلك فكل ذلك وغيره ليس له ثواب إذ «لا يقبل الله مع الكفر عملاً»^(٣). جاء في (أضواء البيان) للشنقيطي: «﴿ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي أبطل ثوابها. فما عمله الكافر من حسن في الدنيا كقرى الضيف وبر الوالدين وحمى الجار وصلة الرحم والتنفيس عن المكروب يبطل يوم القيامة ويضمحل ويكون لا أثر له كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]»^(٤).

ونود أن نذكر أنه لم يرد في غير هذه السورة إضلال العمل ، فلم يقل (أضل أعمالهم) ولا (فلن يضل أعمالهم) في غير هذه السورة.

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة النساء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٧] فختم آية محمد بإضلال الأعمال ، وختم آية النساء بضلال الكافرين فقال (قد ضلوا) فلم ذاك؟

والجواب أن سورة محمد مطبوعة بطابع ذكر الأعمال - كما ذكرت - وهي أكثر سورة ذكرت فيها الأعمال مجموعة (أعمالهم ، وأعمالكم) ، فقد قال في الآية الرابعة ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ وقال: ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩] ، وقال: ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨] ، وقال: ﴿ وَاللَّهُ

(١) الكشف ٣/ ١٢٦.

(٢) الكشف ٣/ ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) الدر المنثور ١٣/ ٣٥٠.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/ ٤٤٢.

يَعْمَلُ أَعْمَلَكُمْ ﴿[محمد: ٣٠] ، وقال: ﴿وَسَيَحِطُّ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] ،
وقال: ﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] ، وقال: ﴿وَلَنْ يَرْكُمُ أَعْمَلَكُمْ﴾
[محمد: ٣٥] .

فناسب ذلك أن يختم بإضلال الأعمال .

وليس السياق في آيات النساء في نحو ذلك ، وإنما السياق في الإخبار
عن أصحاب الأعمال إذا ذكرهم وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا
لِالْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١] ، وقوله في مؤمني أهل الكتاب
بالرسول: ﴿أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢] ، وقوله في الذين
كفروا وظلموا: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨] ،
وقوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾
[النساء: ١٧٢] ، وقوله في الذين آمنوا بالله واعتصموا به: ﴿فَسَيُذِخِلُهمْ فِي
رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

ومن لطائف التعبير في الآيتين ذكر الإضلال أو الضلال فيهما ، ذلك
أنه قال في الآيتين: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، ومعلوم أن السبيل إنما هو
للهداية ، وترك السبيل ضلال ، ولذلك كثيراً ما اقترن ذكر السبيل
بالهداية أو الضلال في القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُطِيعْ
أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَبْغُوتَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾
[الحج: ٩] ، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾
[الأحزاب: ٦٧] ، وقوله: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا
السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] .

وغير ذلك وغيره من اقتران السبيل بالضلال أو الإضلال .

ومما ورد في اقتران السبيل بالهداية قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرُوا وَإِمَّا كَفَرُوا﴾ [الإنسان: ٣].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وغير ذلك وغيره.

فناسب ختم آية محمد بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ بذكر الإضلال.

وناسب ختم آية النساء بقوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ بذكر الضلال، فإن كلتا الآيتين فيمن صد عن سبيل الله، وهو ضلال أو إضلال. ومن الملاحظ أنه أكد آية النساء بـ (إن) فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يؤكد آية محمد، وإنما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنه أخبر في آية النساء عن الذين كفروا وقال عنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فأكد ضلالهم وحقيقته بـ (قد) ووصفه بأنه ضلال بعيد. فناسب ذلك التوكيد.

في حين أن آية محمد لم يخبر بها عن الكافرين وإنما أخبر بأعمالهم عنهم فقال: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾.

فكان كل تعبير مناسباً لموضعه الذي ورد فيه.

وقد تقول: لقد قال سبحانه في سورة النحل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

فختم الآية بقوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ ولم يختمها بالضلال أو الإضلال كما في الآيتين السابقتين فلم ذاك؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لما ورد في موضعه ، ذلك أنه قال في آية النحل: ﴿يَمَّا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ فذكر أنهم (كانوا يفسدون) بالماضي المستمر أي كانوا مستمرين على الإفساد. وعاقبة الإفساد العذاب ، وعاقبة الاستمرار على الإفساد الزيادة في العذاب ، فافتضى فعلهم زيادة العذاب .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه كما هو ظاهر .
إن الآيات الثلاث هذه ^(١) جمعت كل ما يتعلق بالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، فقد ذكر صفتهم وأعمالهم سواء ما كان من عمل البر أو أعمال السوء وعاقبتهم .

فقد ذكر أنهم ضلوا ضلالاً بعيداً ، وأن الله أضل أعمالهم وهي ما كان من الأعمال الفاضلة وأنه يزيدهم عذاباً فوق العذاب ، وذلك عاقبة الإفساد .

* * *

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] .

* * *

هذه الآية بمقابل الآية التي قبلها .
فقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مقابل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

(١) وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَ أَغْنَاهُمْ﴾ . وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ . وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَزِيدُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

فهؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات، وأولئك كفروا وصدوا عن سبيل الله .

وقوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيص بعد العموم ، إذ لا يقبل إيمان إلا مع الإيمان بما نزل على محمد ﷺ ، إذ رب قائل من أهل الكتاب أو من غيرهم يقول: أنا مؤمن بالله وأعمل صالحاً ، فأخبر ربنا أنه لا يقبل عمل عامل ولا يعتد بإيمانه إلا إذا آمن بما أنزل على محمد ، فدين محمد هو الناسخ لما قبله من الأديان ولا يرد عليه النسخ ، فإن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي لا حق غيره ، فإنه لم يقل (هو حق) وإنما قال (هو الحق) معرباً بـ (أل) للحصر ، فإنه لا حق سواه ، ذلك أنه من ربهم . جاء في (الكشاف): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ . . . وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب ، وقيل هو عام .

وقوله ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيماً لشأنه وتعليماً لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقيل: معناه إن دين محمد هو الحق ، إذ لا يرد عليه النسخ ، وهو ناسخ لغيره^(١) .

وجاء في (روح المعاني): ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن ، وخص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهاً بشأنه وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به ، وأنه الأصل في الكل ، ولذا أكد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو جملة معترضة بين المبتدأ والخبر مفيد لحصر الحقيقة فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾^(٢) .

(١) الكشاف ٣/١٢٧ وانظر البحر المحيط ٨/٧٣ .

(٢) روح المعاني ٢٦/٣٧ .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «قوله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ هو في مقابلة قوله في حق الكافر (وصدوا) ؛ لأننا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد ﷺ ، وهذا حث على اتباع محمد ﷺ ، فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه ، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله . لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك ، فأصل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء»^(١) .

وقوله: إنه الحق من ربهم ، يعني من القيم على أمرهم ومربيهم ومالك أمرهم والمنعم عليهم ، فإن الرب هو القيم والمالك والمنعم والمصلح والمدير ، جاء في (لسان العرب): «ويكون الربُّ المصلح ربَّ الشيء إذا أصلحه»^(٢) . «ورب زيد الأمر ربًّا . . إذا ساسه وقام بتدبيره»^(٣) .

فهي أنسب كلمة في هذا المقام ، فإن الذي نزل على محمد إنما هو الحق وهو من ربهم الذي يربهم ويرعى أمورهم ويصلحها ويسوسها ويدبرها . وذلك هو الخير كله .

ولذا كان لفظ (الحق) مقروناً بالرب في مواضع كثيرة من القرآن وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] ، وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٧] ، آل عمران: ٦٠ ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٩] ، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٩] .

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٣٥ .

(٢) لسان العرب (رب) .

(٣) المصباح المنير (الرب) .

جاء في (التحرير والتنوير): «ووصف الحق بأنه (من ربهم) تنويه به وتشريف لهم»^(١).

﴿كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها فقد «ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم»^(٢).

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي شأنهم وحالهم. والبال الفكر والقلب^(٣). جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠] ، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧] .

وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح...

فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح»^(٤).

وهو بمقابل ما قال في الكافرين إنه أضل أعمالهم. فإن ربنا سبحانه أضل ما فعله الكافرون من أعمال البر والخير وأبطله ، وإنه كفر عن المؤمنين سيئاتهم ، وأصلح بالهم.

جاء في (التحرير والتنوير): «وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي:

(١) التحرير والتنوير ٧٧/٢٦.

(٢) الكشف ١٢٧/٣.

(٣) انظر الكشف ١٢٧/٣ ، البحر المحيط ٧٠/٨ - ٧٣.

(٤) التفسير الكبير ٣٤/١٠.

الإيمان مقابل الكفر .

والإيمان بما نزل على محمد ﷺ مقابل الصد عن سبيل الله .

وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه (أضل أعمالهم) .

و(كفر عنهم سيئاتهم) مقابل بعض آخر مما تضمنه (أضل أعمالهم) ،

و(أصلح بالهم) مقابل بقية ما تضمنه (أضل أعمالهم) ^(١) .

* * *

﴿ ذَلِكَ يَأْتِي الَّذِينَ كَفَرُوا وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ

يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ [محمد: ٣] .

* * *

أي ذلك الأمر الذي ذكره وهو إضلال أعمال الذين كفروا وتكفير

سيئات الذين آمنوا وإصلاح حالهم إنما هو بسبب اتباع الذين كفروا

الباطل واتباع الذين آمنوا الحق من ربهم .

والباطل هو غير الحق الذي هو من الله . جاء في (تفسير الرازي):

«الباطل كل ما سوى الله تعالى» ^(٢) .

جاء في (الكشاف): «(ذلك) مبتدأ وما بعده خبر ، أي ذلك الأمر

وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني كائن بسبب اتباع

هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق .

ويجوز أن يكون (ذلك) خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر كما ذكر بهذا

السبب . و(الباطل) ما لا ينتفع به ، وعن مجاهد: الباطل الشيطان» ^(٣) .

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٦/١٠ .

(٣) الكشاف ١٢٧/٣ .

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْتَبِعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم»^(١).

وتدل الآية على أن الباطل ليس له جهة معينة، بل هي كل ما جاء عن غير الله تعالى، فإنه لم يذكر جهة معينة له، بل أطلقه ليدل على أن كل ما جاء عن غيره سبحانه فهو الباطل، وأن الحق لا يكون إلا من رب العباد فخصه بقوله: «﴿اتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾». .
«﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾» .

أي إن الله يبين للناس مثل ذلك التبيين ليعتبروا وإنه «يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم»^(٢).

جاء في (الكشاف): «(كذلك) مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم»^(٣).

وجاء في (روح المعاني): «(أمثالهم) أي أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال . . .

وجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخبيثتهم، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم»^(٤).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٢.

(٣) الكشاف ٣/ ١٢٧.

(٤) المعان ٢٦/ ٣٨.

وجاء في (التحرير والتنوير): «والمعنى: كهذا التبيين بين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود لثلا يختلط الخبيث بالطيب. ولكي يكونوا على بصيرة من شؤونهم»^(١).

* * *

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشدُّوا أَلْوَابَ فَإِنَّمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوَّارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّبَلَاؤٍ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿١﴾ سَيَجْعَلُ اللَّهُ مَنَّا بَعْدُ وَيُضِلِّحُ بِأَلْهَمِ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤-٦].

* * *

وردت ثلاثة تعبيرات في القرآن الكريم في لقاء الذين كفروا في الحرب:

الأول: قوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

والثاني: قوله سبحانه في سورة الأنفال أيضاً: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

والثالث : هو ما جاء في سورة محمد .

وهذه الآيات مرتبة بحسب أحداث الحرب .

فالآية الأولى في النهي عن التولي عند الزحف وتهديد من يتولى وعاقبته .

والآية الثانية في الأمر بالثبات عند اللقاء وعدم التفرق والأمر بالصبر ، فإن الثبات يحتاج إلى الصبر .

وسياق الآية الثالثة وهي آيات محمد في حكم الأسرى ونهاية الحرب .

فهي مرتبة بحسب الأحداث :

فالأولى عند الزحف .

والثانية عند اللقاء .

والثالثة في الأسرى ونهاية الحرب .

وكأنها في موضع واحد ، فأية الزحف وردت أولاً ، وآية الثبات بعدها ، وآية الأسرى بعدها .

وذكر عاقبة الفرار ، وهي أن فاعله باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . وهو أنسب جزاء له . فليست عاقبة الفار أن يرجع فرحاً بنجاته إلى أهله ومأواه ، وإنما يرجع بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير وليس مأواه بيته وأهله .

وأما الثابت الصابر فالله معه .

وإن الذي قتل في سبيل الله لن يضل الله عمله بل سيصلح شأنه ويدخله الجنة .

والآن ننظر في آيات سورة محمد وهي قوله :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحَمَوْهُمْ فَشَدُّوا الرِّبَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْرَاقَهَا ذَلِكَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۚ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۚ وَنُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها ۚ هُمُ ۝﴾ [محمد: ٤-٦] .

والمقصود من اللقاء هو اللقاء في الحرب ، ويوضح ذلك قوله في الآية : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْرَاقَهَا ۚ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أمر بضرب الرقاب وهو القتل . وأصل التعبير (فاضربوا الرقاب) وعبر عن ذلك بالمصدر .

قد تقول : ولكنه عبر عن مثل ذلك في آية أخرى بفعل الأمر وليس بالمصدر ، فقد قال في سورة الأنفال : ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٢] .

فكلاهما أمر بالضرب . فلماذا أمر في آية محمد بالمصدر ، وأمر في آية الأنفال بفعل الأمر ؟

والجواب أن آية محمد إنما هي حكم عام ولم تنزل في حالة حرب معينة ، وإنما المقصود أنه لو حصلت حرب فليقتل الذين كفروا فاضرب الرقاب ، فجاء بالمصدر الذي هو عام وهو الحدث المجرد غير المقيد بزمن .

وأما آية الأنفال فقد نزلت في حرب واقعة مخصوصة وهي وقعة بدر ، والأمر موجه إلى الملائكة ، فجاء بالفعل الدال على الزمن ، قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّكُم بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩١ ۖ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

لِطَهْرِكُمْ بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِفْهُمْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
[الأنفال: ٩-١٢] .

فالأمر - كما ترى - موجه إلى الملائكة في حال مخصوصة لا تنطبق
على كل حالات الحرب ، فأمرهم سبحانه بما أمر ولم يأت بالمصدر
الدال على العموم .

جاء في (تفسير الرازي): «في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة
وهم كانوا فيها ، والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال
فصدور الفعل منه مطلوب .

وهنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ﴾
والمقصود بيان كون المصدر مطلوباً لتقدم المأمور على الفعل قال:
﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ .

وفيما ذكرنا تبين فائدة أخرى ، وهي أن الله تعالى قال هناك:
﴿وَاصْرِفْهُمْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ؛ وذلك لأن الوقت وقت القتال ، فأرشدهم
إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل . وهنا ليس وقت القتال فبين أن
المقصود القتل وغرض المسلم ذلك» ^(١) .

ومن الملاحظ أنه أمر بالمصدر المنصوب ولم يأمر بالمصدر
المرفوع ، فإنه قال: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ بالنصب ولم يقل (فضرب الرقاب)
بالرفع ، كما قال في مكان آخر في آية أخرى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ
بِإِحْسَنِ﴾ بالرفع ؛ ذلك لأن الضرب موقوت بالوقعة وليس دائماً ثابتاً .

فإن الرفع - كما هو معلوم - دالٌّ على الثبات والدوام؛ لأنه جزء من جملة اسمية، بخلاف المنصوب، فإنه على تقدير فعل، والفعل دال على الحدوث كما هو معلوم.

جاء في (معاني القرآن) للفراء: «وأما قوله ﴿فَأَنبِئُ بِالْمَعْرُوفِ وَادَّأِءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] فإنه رفع وهو بمنزلة الأمر في الظاهر كما تقول: من لقي العدو فصبراً واحتساباً، فهذا نصب، ورفع جائر.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنبِئُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ رفع، ونصبه جائز.

وإنما كان الرفع فيه وجه الكلام؛ لأنها عامة فيمن فعل، ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا فيرفع.

وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجداً جداً، وسيراً سيراً، نصبت لأنك لم تنوبه العموم فيصير كالشيء الواجب على من أتاه وفعله... وأما قوله: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ فإنه حثهم على القتل إذا لقوا العدو ولم يكن الحث كالشيء الذي يجب بفعل قبله، فلذلك نصب، وهو بمنزلة قولك: إذا لقيتم العدو فتلهيلاً وتكبيراً وصدقاً عند تلك الواقعة... كأنه حث لهم^(١).

وهناك لطيفة أخرى وهي استعمال لفظ (الرقاب) في آية محمد دون الأنفال، وهي أن السياق في آية محمد في ذكر الأسرى وذكر حكمهم في المن أو الفداء ومن بقي منهم فهو رقيق وهو ما يسميهم القرآن بـ (الرقاب) وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ [البلد: ١٣] وقوله في آية الزكاة: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وجعل لهم نصيباً منها، فناسب ذكر الرقاب في آية محمد دون

(١) معاني القرآن ١/١٠٩ وانظر ٢/٣٩، معاني النحو ١/١٨٦، الجملة العربية والمعنى

الأنفال التي هي أمر للملائكة . والملائكة ليس عندهم أسرى ولا رقاب ،
فغاير بين التعبيرين لاختلاف المقامين والله أعلم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ ﴾ .

(أتختتموهم) «أكثرتم قتلهم وأغلظتموهم . . . أو أثقلتموهم بالقتل
والجراح حتى أذهبتهم عنهم النهوض» ^(١) .

﴿ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ ﴾ أي فأسروهم ، والوثاق ما يوثق به ^(٢) .

قد تقول : لقد أمر أولاً بالمصدر فقال : ﴿ فَضَرَبَ الرِّقَابَ ﴾ وقال بعد
ذلك : ﴿ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ ﴾ فأمر بفعل الأمر ولم يقل (فشد الوثاق) فأمر
بالمصدر كما قال أولاً فما الفرق ؟

والجواب أنه من المعلوم أن الأمر بالمصدر أقوى من الأمر بالفعل ،
فقولك (صبراً) أقوى وآكد من قولك (اصبر) ^(٣) .

وفي الآية أمران :

الأول : الأمر بضرب الرقاب

والآخر : الأمر بشد الوثاق وهو الأسر .

ولا شك أن ضرب الرقاب آكد وأشد من شد وثاق الأسير .

فجاء للأمر الشديد المؤكد بالمصدر ، وبالذي دونه بالأمر بالفعل ،
فهما ليسا بمرتبة واحدة كما هو معلوم . فإن شد الوثاق منتهٍ إما بالمن أو
بالفداء كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ بخلاف
ضرب الرقاب فكان كل تعبير مناسباً لحالته .

(١) الكشف ١٢٧/٣ .

(٢) انظر الكشف ١٢٧/٣ .

(٣) انظر الجملة العربية والمعنى ٢١٠ - ٢١١ .

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ .

وهو منصوب على تقدير فعل مضمر ، أي فإمّا أن تمنّوا وإمّا أن تفادوهم «والمعنى التخيير بعد الأسر بين أن يمنّوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم»^(١) .

«فالمن أن تترك الأسير بغير فداء ، والفداء أن يفدي المأسور نفسه»^(٢) .
وقدم المن على الفداء ؛ لأنه أيسر ولأنه أقرب إلى الفضل ، فبدأ بما هو أيسر وأفضل لأن من الأسرى من لا يملك الفداء .

والأمر يعود إلى المصلحة العامة التي يقدرها الأمير ، فقد يحكم بعدم المن ولا الفداء وإنما الإبقاء عليهم إذا كانت المصلحة العامة تقتضي ذلك .
وقد أجاز بعض النحاة في مثل هذا التعبير الرفع^(٣) ولم ترد قراءة بالرفع في هذه الآية .

والنصب أولى في هذا المقام ؛ لأنها حالة موقوتة بالحرب وليست دائمة . والمن أو الفداء حالة موقوتة منتهية بأحدهما .

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ .

«أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع . . . وقيل أوزارها آثامها»^(٤) .

وفي (معاني القرآن) للفراء أن أوزار الحرب «آثامها وشركها حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلم»^(٥) .

(١) الكشف ١٢٧/٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٥٧/٣ .

(٣) انظر حاشية الصبان ١١٧/٢ .

(٤) الكشف ١٢٨/٣ وانظر البحر المحيط ٧٤/٨ .

(٥) معاني القرآن ٥٧/٣ .

واختيار أوزار الحرب على الأثقال ليجمع أكثر من معنى وهو اختيار لطيف .

والحرب من ناحية أخرى هي أثقال وهموم يحملها القائمون بها وقوله: ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ يجمع كل معاني الأوزار وهو من لطيف الاستعمال .

﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ .

«أي الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك» ^(١) .

أي ولو أراد ربك لانتقم منهم بما يريد من أسباب الهلاك والتدمير من حاصب أو رجفة أو زلزال أو خسف أو بالملائكة من غير حرب أو بغير ذلك من أسباب الهلاك ^(٢) .

واختيار لفظ الانتصار على الإهلاك ونحوه فلم يقل مثلاً (ولو يشاء الله لأهلكهم) لأن المقام مقام حرب ، والانتصار أنسب في نحو هذا المقام .
﴿ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ .

أي ليمتحن بعضكم ببعض ويختبرهم فيمتحن المؤمنين بالكافرين ليجاهدوهم ويصبروا ويرابطوا فينالوا الأجر العظيم ، ويمتحن الكافرين بالمؤمنين فيعذبهم بأيديهم أو يهلكهم أو يأسرهم وما إلى ذلك من نتائج الحرب .

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾: «ولكن أمركم بالقتال ليلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعالجهم على أيديهم

(١) الكشاف ١٢٨/٣ .

(٢) انظر الكشاف ١٢٨/٣ ، معاني القرآن ٥٨/٣ .

ببعض ما وجب لهم من العذاب» ^(١).

وجاء في (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: «أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ» [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة: ﴿فَتِلْكَ لَهُمُ يَوْمَ يَعَذَّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبَ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَتَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] ^(٢).

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

لقد قال ههنا فيمن قتل في سبيل الله: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ بالفعل المضارع.

وقال في الآية الأولى في الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ بالفعل الماضي، ذلك - والله أعلم - أن المقتول في سبيل الله يجري عليه عمله الذي كان يعمل، كما جاء في الحديث الصحيح، فقد ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان» ^(٣).

وفي سنن الترمذي «عن رسول الله ﷺ أنه قال: كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر» ^(٤).

(١) الكشف ٣/ ١٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٤.

(٣) صحيح مسلم ٥١/ ٦.

(٤) سنن الترمذي ٦/ ١٦٣.

فالعمل مستمر ولن يضلّه سبحانه لأنه مستمر غير منته .

وجاء في (تفسير الرازي): «فقال في حق الكافر (أضل) بصيغة الماضي ولم يقل (يضل) إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم وكأنه لم يوجد من أصله .

وقال في حق المؤمن: (فلن يضل) ولم يقل (ما أضل) إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له . ف(لن يضل) للتأيد وبينهما غاية الخلاف كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد»^(١) .

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنة^(٢) كما يهدي الظالمين إلى صراط الجحيم كما قال سبحانه: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصفات: ٢٢ - ٢٣] .

﴿وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم .

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ .

فقد عرفها لهم في الدنيا بذكر أوصافها والنعيم الذي فيها وما أعد لأهلها «ولا حاجة إلى وصفها ، فإنه تعالى (عرفها لهم) مراراً ووصفها»^(٣) ، وأعلمها لهم في الآخرة «بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة . قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا يستدلون عليها»^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١٠/٤١ .


(٢) البحر المحيط ٨/٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٠/٤٢ .

(٤) الكشف ٣/١٢٨ ، وانظر تفسير أبي السعود ٦/١٥٢ ، وانظر تفسير ابن كثير ٤/١٧٤ .

وقيل: معنى عَرَفَهَا طيبتها... مأخوذ من العرف وهي الرائحة الطيبة^(١)، وكلها محتملة وحاصلة والله أعلم.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾  وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧-٨].

* * *

أي: «إن تنصروا دين الله ورسوله (ينصركم) على عدوكم ويفتح لكم.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام»^(٢).
«وثبتت الأقدام عبارة عن النصر في مواطن الحرب، وقيل على الإسلام، وقيل على الصراط»^(٣).
وكل ذلك مراد.

وقد ورد تعبير (ثببت الأقدام) حيثما ورد في مواطن الحرب في القرآن الكريم.

قال تعالى في وقعة بدر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَكَايَنَ مَنِ نَّبَى قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ

(١) النكت والعيون ١٢٧/٤.

(٢) الكشف ١٢٨/٣.

(٣) فتح القدير ٣٠/٥.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٦ - ١٤٧﴾ .

وقال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِغًا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] .
ومنها آية محمد هذه .

وأما زل القدم فقد ورد بمعنى الخروج عن الإسلام قال تعالى: ﴿وَلَا
تُخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قدمٌ بَعْدَ ثبوتِهَا وَتَذُوقُوا السَّوَاءَ يَمَّا صَدَدْتُمْ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤] .

والملاحظ أنه خاطب المؤمنين بالشرط فقال: ﴿إِنْ تَصُروا اللَّهُ يَصُرْكُمْ﴾
فنصر الله للمؤمنين مشروط بنصرهم الله ، وجعل الشرط بـ (إن) الشرطية
التي تستعمل في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها
والموهومة والنادرة ونحوها^(١) . ولم يأت بـ (إذا) التي تكون للمقطع
بحصوله وللكثير الوقوع^(٢) مما يدل على مشقة نصر الله وقلة من يفعل
ذلك ويثبت عليه . جاء في (التحرير والتنوير): «وجيء الشرط بحرف
(إن) الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط للإشارة إلى مشقة الشرط
وشدته ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه»^(٣) .

وأما الذين كفروا فقد جعل لهم التعس من دون شرط فإن ذلك حاصل
لهم قطعاً .

* * *

(١) انظر ابن يعيش ٤/٩ ، الإتقان ١/١٤٩ ، معاني النحو ٤/٥٩ .

(٢) انظر معاني النحو ٤/٦١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٨٥ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٨] .

* * *

التعس هو الهلاك والعتار والسقوط والشر والبعد والانحطاط^(١) .

فللمؤمنين النصر وتثبيت الأقدام ، وللكافرين السقوط والانحطاط والهلاك .

«وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب إضماره لأنه للدعاء كسقيًا ورعيًا . . .

وما أطف ذكر ذلك في حقهم بعد ذكر تثبيت الأقدام في حق المؤمنين»^(٢) .

وجاء في (البحر المحيط): «فتعسا لهم أي هلاكًا بأداة تقوية لقلوب المؤمنين ، إذ جعل لهم التثبيت ولل كفار الهلاك والعترة»^(٣) .

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ»^(٤) .

وذكر الفاء في جواب الاسم الموصول فقال: «﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ للتوكيد ، فإن الفاء قد تأتي في نحو هذا الموطن للتوكيد^(٥) ، فقد أكد حصول التعس للكافرين

ومن الملاحظ أنه قال في الآية الأولى من السورة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ .

(١) القاموس المحيط (التعس) وانظر لسان العرب (تعس) .

(٢) روح المعاني ٢٦ / ٤٤ .

(٣) البحر المحيط ٨ / ٧٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ١٧٤ .

(٥) انظر معاني النحو ٤ / ١١٠ وما بعدها .

وقال في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فزاد لهم التعس على إضلال العمل ، وذلك أن المقام في مقام القتال ، فقال في الذين آمنوا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُيَسِّرَ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

وأما الذين كفروا فذكر أن لهم التعس وهو الهلاك والعتار ولهم إضلال العمل أيضًا .

فناسب في مقام الحرب ذكر النصر وتثبيت الأقدام للمؤمنين ، وذكر التعس وإضلال الأعمال للكافرين .

ومن الملاحظ أيضًا في هذه الآية أنه ذكر الذين آمنوا من دون زيادة شيء آخر ، وذكر في المقابل الذين كفروا من دون زيادة شيء آخر .

أما الآية الأولى فزاد فيها الصد عن سبيل الله .

وذلك أن المقام مختلف ، فالآية الأولى هي في عموم الأحوال ، وأما هذه الآية فهي في مقام القتال ، والقتال صد عن سبيل الله وزيادة ، وهي نظير قوله سبحانه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُهَادُّونَ﴾ [آل عمران: ١٢] .

فقوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ نظير فتعسا لهم .

وقوله: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ عاقبة إضلال الأعمال ، فكلاهما في الآخرة .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩] .

أي أبطلها . وحقيقة الحبط هو أن ينتفخ بطن الدابة فتموت ، فالحبط قد يأتي بمعنى الموت والهلاك^(١) .

فمعنى إحباط العمل إماتته وإهلاكه .

ومن لطيف المناسبة أنه قال في الآية قبلها : ﴿ فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فقال : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أضاعها ، ثم قال بعدها : ﴿ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أماتها وأهلكها ، فأضاعها أولاً ثم أهلكها وأماتها في حالة ضياعها ، ولم يأت بالإحباط أولاً ثم الإضلال ، فإنها إذا ماتت فلا إضلال ولا إضاعة فإنها ميتة ، والإضلال والإضاعة للموجودات ، فكان التعبير مناسباً للواقع في الحياة .

إن في هذا السياق مشقتين شديديتين وخسارتين بالغتين : الإضاعة والإهلاك ، فلا أمل يرجونه من أعمالهم ، وهل هناك أمل في الموتى؟! لقد فقدوا أعز شيء وأغلاه وأرجى ما ينفعهم ، وذلك غاية الحزن والأسى والخسران ، وذلك هو الخسران المبين .

* * *

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۚ ﴾ [١١] ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ مَوَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ [محمد: ١٠] . [١١] .

* * *

بعد أن ذكر أنه أحبط أعمالهم ذكرهم بمن قبلهم وعاقبتهم فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فإن آثارهم

(١) انظر لسان العرب (حبط) .

شاخصة ودلائل هلاكهم لا تزال حاضرة لمن يسير فينظر .

لقد قال : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ ﴾ بالتذكير ولم يقل (كانت عاقبة) ذلك أنه ذكر الفعل ؛ لأن العاقبة هنا بمعنى العذاب ، وهو مذكر . وكل ما ورد في القرآن من تذكير العاقبة فهو بمعنى العذاب ، وإذا أنشأ فهي بمعنى الجنة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَذَابُهُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥] .

فالتذكير والتأنيث بحسب المعنى ، وهذا من لطيف مراعاة المقام^(١) .
﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الدمار : استئصال الهلاك ، أي : استأصلهم . جاء في (الكشاف): «(دمر عليه) أهلك عليه ما يختص به ، والمعنى : دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم»^(٢) .

فدمر عليهم أشد من دمرهم ، فإنه دمرهم ودمر ما يختص بهم . وجاء بـ (على) لمعنى الاستعلاء ، فأهلكهم وما يختص بهم فغطاهم الهلاك والتدمير .

جاء في (روح المعاني): «يقال : دمره : أهلكه ، ودمر عليه : أهلك ما يختص به ، فدمر عليه أبلغ من دمره ، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيًا منسيًا والإتيان بكلمة الاستعلاء ، وهي لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه»^(٣) .

ثم ذكر ربنا أن هذه العاقبة لا تختص بمن سبق من هذه الأقوام ، بل

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ج ٢/ ٥٢ وما بعدها .

(٢) الكشاف ١٢٩/ ٣ .

(٣) روح المعاني ٤٥/ ٢٦ .

إنها تشمل من يأتي بعدهم من الكافرين فقال: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلُهَا﴾ أي أمثال تلك العاقبة والتدميرة^(١).

* * *

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

* * *

أي سبب ذلك التثبيت للمؤمنين ونصرهم وإهلاك الكافرين والتدمير عليهم هو أن الله مولى الذين آمنوا ، أي: وليهم وناصرهم ، وأن الكافرين لا مولى لهم ، فلا ولي لهم ولا ناصر «فيدفع ما حلّ بهم من العقوبة والعذاب»^(٢).

إن هذه الآية مناسبة لما قبلها ، ومناسبة لما بعدها .
فإنه ذكر قبلها أن الله سبحانه ينصر الذين آمنوا ويثبت أقدامهم ، فهو مولاهم وناصرهم .

وأن الذين كفروا تعسّأ لهم وأضل أعمالهم ، وأنه دمر على الذين كفروا ممن سبقهم ، ولغيرهم من الكافرين أمثالها فهم لا مولى لهم .
وذكر بعدها أن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، فالله مولى الذين آمنوا . وأن النار مثوى للذين كفروا فلا مولى لهم .

فالله مولى الذين آمنوا في الدنيا والآخرة .
وإن الكافرين لا مولى لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة .

* * *

(١) انظر البحر المحيط ٧٦/٨ .

(٢) روح المعاني ٢٦/٤٥ وانظر فتح القدير ٣١/٥ .

(كما تأكل الأنعام) في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصده من النحر والذبح ، أي إن الأكل مشبهاً أكل الأنعام . والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر^(١) .

وفي (تفسير الرازي) قوله تعالى : ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ «إن الأنعام يهتمها الأكل لا غير والكافر كذلك .

والمؤمن يأكل ليعمل صالحاً ويقوى عليه»^(٢) .

والنار مثوى لهم ، أي منزل ومقام^(٣) . والشواء طول المقام مع الاستقرار^(٤) .

والأنعام بعدما تتمتع وتأكل تذبح وتشوى في النار أو تطبخ عليها ، وهؤلاء بعدما يتمتعون ويأكلون يُلقون في النار ، فهي مثواهم .

ولم يأت في الجنة أنها مثوى للذين آمنوا ، ولعل ذلك لأن من معاني (ثوى) قبر^(٥) فتكون النار كالقبر لهم ، ولا يحسن ذلك في أهل الجنة والله أعلم .

جاء في (التحرير والتنوير) أنه سبحانه قال : ﴿ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ «لأن الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها ، فلذلك أضيفت في قوله : ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ ﴾ ، لأنه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر»^(٦) .

لقد وردت ثلاثة تعبيرات لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ .

(١) الكشف ٣/ ١٢٩ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٧٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٤٥ .

(٣) الكشف ٣/ ١٢٩ ، البحر المحيط ٨/ ٧٧ .

(٤) انظر لسان العرب (ثوا) ، تاج العروس (ثوى) .

(٥) لسان العرب (ثوا) ، تاج العروس (ثوى) .

(٦) التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٠ .

إحداهن : آية محمد التي مر ذكرها .

والأخرى : هي قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٤] .

والثالثة : هي قوله تعالى في سورة الحج أيضًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۖ وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴾ [الحج : ٢٣ - ٢٤] .

فما سر الاختلاف في خواتيم هذه الآيات ؟

والجواب أن آية محمد لقد ذكرناها وذكرنا خاتمتها .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فهو مناسب لسياقه ، فقد ورد قبل الآية في الكافر قوله سبحانه : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۖ ﴾ [١٦] يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ [الحج : ١٢ - ١٣] .

فقد ذكر أن الكافر يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، أما الله فهو يفعل ما يريد . وهو بمقابل ما يدعوه الكافر الذي لا يضره ولا ينفعه .

وأما قوله : ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ فهو بمقابل ما ذكره ربنا قبل الآية في هذا الصنف : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٩] .

فالكافر يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، فهو يخزيه في الدنيا ، ويذيقه رب العزة عذاب الحريق في الآخرة .

فالذي يدعوه الكافر ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير .

وأما الذي يدعوه المؤمن فنعم المولى ونعم النصير ، فهو يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار بمقابل الكافر الذي يذيقه الله عذاب الحريق .

وأما قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : ٢٣] فهو مناسب لسياقه أيضاً .

فقد ذكر أن الذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار . وأما الذين آمنوا فلباسهم في الجنة حرير .

وأن الذين كفروا يصب من فوق رؤوسهم الحميم . وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

وأن الذين كفروا لهم مقامع من حديد . وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا .

وأن الذين كفروا كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق .

وأما الذين آمنوا فقد هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد .

فيقال للذين كفروا ذوقوا عذاب الحريق .

وأما الذين آمنوا فقد هدوا إلى الطيب من القول فيما بينهم لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلاً سلاماً سلاماً .

وهدوا إلى حمد ربهم في الجنة كما أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿١﴾
[فاطر: ٣٣-٣٥].

وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقوله سبحانه عنهم: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَحِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وهذا إلى صراط الحميد في الدنيا والآخرة.

فهم يهديهم إلى الجنة ويهديهم في الجنة إلى أماكن التذاذهم وزيادة سعادتهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

فقد جُوزَ أن تكون الهداية إلى ما يريدونه في الجنة كما جُوزَ أن تكون الهداية في الدنيا لتكون سبباً لدخول الجنة^(٢).

وكما قال أيضاً: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

قال المراد: «هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الأخرى»^(٣).

فناسب كل تعبير المقام الذي ورد فيه.

جاء في (التحرير والتنوير): «فقوله: ﴿يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلخ، مقابل قوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾».

وقوله: ﴿يُحَاكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَكَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ مقابل قوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

(١) انظر روح المعاني ١٧/١٣٧.

(٢) روح المعاني ١١/٧٢-٧٣.

(٣) روح المعاني ٦/٤٣.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ مقابل قوله: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ﴾ مقابل قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فإنه من القول النكد^(١).

* * *

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

* * *

(كَايْنٍ) لفظة تفيد التكثير ، أي إن كثيراً من القرى التي هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ، ويعني بها مكة (أهلكناهم) أي أهلكنا أهلها ولم يكن لهم من ينصرهم .

وقال: (أهلكناهم) ولم يقل (أهلكناها) تعظيماً لمكة لئلا يفهم أن الإهلاك قد يصيبها أيضاً ، فإنها أعز على الله وأكرم من أن ينالها إهلاك ، وإنما قد يهلك أهلها العتاة كما أهلك غيرهم من الظالمين .

وقد ورد في القرآن الكريم إهلاك القرى في مواطن عدة من القرآن ، فقد قال سبحانه: ﴿فَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِّن قَرِيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

وقد وصف ربنا قرى كثيرة بالظلم إلا مكة فإنه لم يصفها بالظلم تعظيمًا لها - كما ذكر أولو العلم - وإنما وصف أهلها به ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥] . ويعني بهذه القرية الظالم أهلها مكة ، «وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة» ^(١) .

* * *

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٤] .

* * *

لقد طلب ربنا من عباده الموازنة عن طريق الاستفهام التقريري بين فريقين من الناس : من كان على بينة من ربه ، ومن زُيِّنَ له سوء عمله هل يستويان ؟

وهو «تقرير لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين ، وكون الأولين في أعلى عليين ، والآخرين في أسفل سافلين ، وبيان لعله ما لكل منهما من الحال ، والهمزة لإنكار استوائهما» ^(٢) .

وقال : ﴿ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فبين أن البينة إنما هي من الله ولا تكون من جهة أخرى أيًا كانت تلك الجهة ، فالله وحده هو الهادي لعباده إلى صراطه المستقيم .

(١) فتح القدير ١/ ٤٥٠ ، وانظر تفسير الرازي ٤/ ٤١١ .

(٢) روح المعاني ٢٦/ ٤٧ .

وقال: ﴿كَمْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فبنى الفعل (زين) للمجهول ولم يذكر له فاعلاً معيناً ليشمل كل ماعدا البينة من الرب وأياً كان صاحبها . وهو نظير قوله السابق: ﴿ذَلِكَ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣] .

فالباطل ليس له جهة معينة - كما سبق أن ذكرنا - فكل ما جاء عن غير الله باطل ، وأن الحق ليس له إلا جهة واحدة وهو كونه من الله . ولم يرد في القرآن الكريم إسناد تزيين سوء العمل إلى الله ، فلم يقل مرة (زيناً لهم سوء أعمالهم) لثلا ينسب السوء إليه سبحانه ، وقد قال عن الكافرين: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤] بإسناد التزيين إليه سبحانه من غير ذكر السوء تأديباً^(١) .

وقدم من كان على بينة من ربه مناسبة لتقديم الذين آمنوا وعملوا الصالحات على الذين كفروا في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] ، ومناسبة لما جاء بعدها من تقديم المتقين في قوله: ﴿مَثَلُ الْخَافِئَةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمْ هُوَ خَيْرٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥] .

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يتبعوا ما يحكم العقل بسلامته وصوابه وإنما اتبعوا الأهواء .

وقال (واتبعوا) بتضعيف الفعل ولم يقل (وتبعوا أهواءهم) للمبالغة ، فإنهم بالغوا في اتباع الهوى فازدادوا سوءاً على سوء .

* * *

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) باب (نائب الفاعل) ٦٥/٢ وما بعدها .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمْ هُوَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] .

* * *

مثل الجنة أي صفة الجنة^(١) .

لقد ذكر ربنا في هذه الآية ما لم يصرح به في موضع آخر .

فقد ذكر أن فيها أنهاراً من ماء ، ولم يذكر في موضع آخر أنهاراً من ماء ، بل ذكر جنات تجري من تحتها الأنهار ، والأنهار في الجنة لا تختص بالماء كما بين في هذه الآية ، فقد ذكر أنواعاً أخرى من الأنهار .

نعم لقد ذكر الماء في الجنة على العموم ، فقد ذكر أن أصحاب اليمين في نعيم ذكر منه الماء المسكوب فقد قال : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ في سِدْرِ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿الواقعة: ٢٧ - ٣١﴾ .

وذكر أن أصحاب النار نادوا أصحاب الجنة ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] .

غير أنه لم يذكر الأنهار من الماء في غير هذه الآية .

وذكر أنهاراً من لبن ولم يرد ذلك في غير هذا الموطن ، بل لم يصرح أن في الجنة لبناً في غير هذا الموضع .

وذكر أنهاراً من خمر ، ولم يذكر ذلك في غير هذا الموطن ، بل لم يصرح بأن فيها خمرًا . نعم لقد ورد أن أهل الجنة يطاف عليهم بكأس من

معين ، وأنهم يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ وغير ذلك ، إلا أنه لم يصرح أن المقصود بذلك هي الخمر .

نعم ذكر كثير من المفسرين أنه يعني بذلك الخمر ، غير أنه لم يصرح بها ، بل ربما كانت الكأس ملأى بشراب لا نعلمه .

ثم إنه ذكر الكأس ولم يذكر الأنهار ، فالكأس مما يطاف به على أهل الجنة ، وأما الأنهار فمن صفات الجنة .

وذكر أنهاراً من غسل مصفى ولم يرد نحو ذلك في موضع آخر ، بل لم يرد ذكر العسل تصريحاً في غير هذه الآية . نعم لقد ذكر النحل وأنه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٦٩] .

ومعلوم أن المقصود بذلك إنما هو العسل ، غير أنه لم يرد ذكر العسل إلا في آية محمد هذه .

قد تقول : لكنه لم يقل إن الأنهار تجري كما في الآيات الأخرى . فنقول إن المقصود في هذه الآية إنما هو ذكر الطعوم وليس مجرد ذكر الشيء .

فقوله : ﴿مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أفاد أنه غير متغير الطعم ولا الرائحة فـ(أسن الماء) وأجن «إذا تغير طعمه وريحه» ^(١) فعلم من ذلك أنه يجري .

وقوله : ﴿مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ نفى لجميع وجوه الفساد فيه ^(٢) ، ومن ذلك أنه لم يحمض ^(٣) .

(١) الكشف ٣/ ١٣٠ .

(٢) تفسير الثعالبي ٥/ ٢٣٤ .

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٤٨ .

جاء في (الكشاف): «﴿مَنْ لَبِنَ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا ، فلا يعود قارصًا ولا حازرًا ولا ما يكره من الطعوم»^(١).

والملاحظ أنه قال: «﴿لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فنفى ب (لم) التي تقلب زمن المضارع إلى الماضي فهو بقي على حاله منذ أن خلقه الله لم يتغير ، ولم يقل (لا يتغير طعمه) ، إذ لربما أفهم أنه لا يتغير طعمه بعد دخول أهل الجنة ، وأما قبل ذلك فقد كان له طعم آخر ، إذ لربما انتهى الطعم إلى طعم آخر ، فإن اللبن قد يتغير طعمه في العادة فيصبح حازرًا أو حامضًا أو غير ذلك ، ثم يبقى على ذلك فلا يتغير . فنفى ب (لم) للدلالة على أنه كذلك منذ أوجده الله سبحانه .

وقوله: «﴿وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ﴾ ذكر طعمها وأنها لذة للشاربين وليس فيها ما عرف عن خمر الدنيا من كراهة الطعم وذهاب العقل والصداع وما إلى ذلك من المكروهات «والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر»^(٢).

وقوله: (لذة) قد يكون وصفًا مؤنثًا ، وهو تأنيث اللذّ فيقال: لذّ ولذّة مثل ضخم وضخمة وعفّ وعفّة يقال: رجل عفّ وامرأة عفّة أي عفيفة^(٣).

وقد يكون مصدرًا وصفت الخمر به أي إنها اللذة بعينها . فالوصف بالمصدر يفيد المبالغة في الوصف كما هو معلوم .

جاء في الكشاف: «﴿لَذَّةٌ﴾ تأنيث لذّ، وهو اللذيذ أو وصف بمصدر»^(٤).

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٠ .

(٣) انظر لسان العرب (عفف) ، المصباح المنير (عف) .

(٤) الكشاف ٣/ ١٣٠ .

وقوله: ﴿وَأَنْهَرُ مَنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ والعسل معروف الطعم وقد أبعد عنه ما يكره من الشمع أو غيره فهو «لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره»^(١).

جاء في (تفسير الرازي): «ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها الدنيا.

فالماء يتغير يقال: أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آمن.

وأسن اللبن إذا بقي زماناً تغير طعمه.

والخمر يكرهه الشارب عند الشرب.

والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيراً»^(٢).

فالقصد من هذه الآية ذكر الطعوم والتعرية عما يستكره من الصفات «وبدئ من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات.

ثم باللبن إذ كان يجري مجرى الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم.

ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما يلتذ به.

ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر في الرتبة»^(٣).

وليس في هذا الموضع وحده ذكر أمور في الجنة لم تذكر في موضع آخر بل قد يذكر في مواضع أخرى ما لم يرد في غيرها، من ذلك ما ذكره في سورة الإنسان من عين السلسيل في قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] ولم يرد ذلك في موضع آخر.

(١) الكشف ٣/ ١٣٠.

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٤٧.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٧٩.

ونحو ما ذكره في سورة المطففين من عين التسنيم في قوله: ﴿وَمَرَّاهُ مِنْ سَنَنِيمٍ﴾ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿[المطففين: ٢٧ - ٢٨] .

وغير ذلك .

ثم إنه بعد أن ذكر المشروب أشار إلى المأكول^(١) فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ . فذكر المشروب والمطعم .
﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .

أي ولهم مغفرة من ربهم ، ولم يقل (ولهم فيها مغفرة من ربهم) كما قال في الثمرات: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ذلك أن المغفرة قبل دخول الجنة وهي سبب دخولهم الجنة .

وقد يكون ذلك على احتمال تقدير (فيها) أيضًا ، فتكون المغفرة للمتقين قبل دخول الجنة وبعد دخولها للدلالة على رفع التكليف فيما يتنعمون به من غير حساب من مأكلاً أو مشرباً أو غير ذلك .

جاء في (تفسير الرازي): «﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: ولهم المغفرة قبل دخولها .

والثاني هو أن يكون المعنى لهم فيها مغفرة ، أي رفع التكليف فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا»^(٢) .

«وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتنغصص لذتهم ، والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذه بها»^(٣) .

(١) تفسير الرازي ٤٧/١٠ .

(٢) تفسير الرازي ٤٧/١٠ - ٤٨ .

(٣) روح المعاني ٤٩/٢٦ .

فلم يذكر (فيها) للإطلاق وليشمل كل أحوال المغفرة مما نعلم ومما لا نعلم والله أعلم .

وقال : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ فقال (من ربهم) أي القِيم على أمرهم والمنعم عليهم وسيدهم ومالكهم ، فذكر الرب هنا مناسب لما ذكر من النعم .
﴿ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴾ .

أي أصحاب الجنة التي ذكر شيئاً من نعيمها كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً ؟ أي حاراً منتهى الحرارة « قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم وانمازت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم »^(١) .
وقال (فقطّع) بالتضعيف ولم يقل (فقطّع) للدلالة على كثرة التقطيع والمبالغة فيه .

فذكر ما يسقى أهل الجنة وما يسقى أهل النار .
لقد ختم المشروبات لأهل الجنة بالعسل المصفى الذي فيه شفاء للناس في الدنيا .
وذكر المشروب الذي يقطع أمعاء الكافرين .
فذكر للمؤمنين ما فيه الشفاء ، وللكافرين ما يقطع الأمعاء ، فشتان ما بين الحالتين .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦] .

هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ويسمعون كلامه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال في الوقت القريب منا؟^(١) «وذلك على سبيل الهزء والاستخفاف أي لم نفهم ما يقول ولم ندر ما نفع ذلك .

أنفاً: الساعة الماضية القريبة منا»^(٢)

وقال هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] ، ذلك أن المستمعين في آية يونس أكثر فجاء بواو الجماعة .

ففي آية محمد ذكر من كانوا في مجلسه من المنافقين وهم قلة .

أما آية يونس فقد ذكر فيها من يستمع إليه على العموم ولم يحدده في مجلس ، قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] فذكر الصم على العموم .

وكذا كل ما ورد في القرآن من قوله (من يستمع) و (من يستمعون) ، فإن (من يستمعون) أكثر من (من يستمع)^(٣) .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .

أي ختم عليها وغطاها فلا تعي ، «يقال طبع الله على قلوب الكافرين نعوذ بالله منه أي ختم فلا يعي وغطى ولا يوفق لخير»^(٤) .

والطبع أشد من الختم ، جاء في (الفروق اللغوية) في الفرق بين

(١) انظر الكشف ٣/ ١٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٩ .

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ١/ ١٢٦ وما بعدها في باب (الاسم الموصول) .

(٤) لسان العرب (طبع) .

الطبع والختم «أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه ، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيد الختم ، ولهذا يقال : طبع الدرهم طبعاً . وهو الأثر الذي يؤثر فيه فلا يزول عنه . كذلك أيضاً قيل طبع الإنسان لأنه ثابت غير زائل» ^(١) .

لقد ذكر ربنا فيمن طبع الله على قلوبهم أنهم لا يسمعون ولا يعلمون ولا يفقهون . قال تعالى : ﴿ وَنَطَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠٠] .

وقال : ﴿ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٩٣] ، وقال : ﴿ وَطَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨٧] .

فقولهم : ﴿ مَاذَا قَالَ عَاقِبًا ﴾ جمع كل هذه المساوئ ، فقد نفى عنهم السمع والعلم والفقه . فكأنهم لم يسمعوا ماذا قال ، فسألوا : ماذا قال ؟ ولم يعلموا ولم يفقهوا قوله فأرادوا فهم ما قال فسألوا الذين أوتوا العلم .

فجمع بقوله : ﴿ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ كل هذه المساوئ التي ذكرت في مواضع متعددة . ولذا لم يذكر حالة من حالات الطبع بل أطلقها ليشملها كلها .

﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

فذكر عنهم أمرين كلاهما سيئ : الطبع على قلوبهم ، واتباع الهوى . وقال : ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ بالتضعيف ولم يقل (وتبعوا) للمبالغة في اتباع الهوى .

* * *

(١) الفروق اللغوية ٧٢ .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ [محمد: ١٧] .

بعد أن ذكر ربنا الذين طبع الله على قلوبهم من المنافقين واتبعوا أهواءهم ذكر الذين اهتدوا بمقابل أولئك .

فذكر في الآية السابقة من يستمع إلى رسول الله من المنافقين ولا يلقي له بالأ تهاوئاً منه .

وذكر في هذه الآية الذين استمعوا إلى رسول الله فزادهم ذلك هدى .

وذكر في الآية السابقة أنهم طبع الله على قلوبهم .

وذكر بمقابل ذلك أن الذين اهتدوا زادهم هدى .

فأولئك طبع الله على قلوبهم .

وهؤلاء زادهم هدى .

وذكر أن أولئك اتبعوا أهواءهم .

وأما هؤلاء فأتاهم تقواهم ، فانقوا الله في القول والعمل .

«فَقَبُولُ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ ؛ لأن الطبع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر . وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بقوله جل وعلا: ﴿وَأَنَّهُمْ نَقَوْهُمْ﴾ فيحمل على كمال التقوى .

ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماء إلى معنى قوله تعالى حكاية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ، وتلويح إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني ، وملازمة التقوى دواء إلهي^(١) .

جاء في (تفسير الرازي): «لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدي يفسر ويفيد»^(١) .

وقوله: ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ يحتمل أن الفاعل هو استماعهم إلى رسول الله ﷺ . فالمنافقون يقولون: ماذا قال آنفاً؟ والمهتدون زادهم ذلك هدى .

ويحتمل أن الفاعل هو الله . ويقوي ذلك قوله تعالى في المنافقين: ﴿ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

ويقابل ذلك أن الله سبحانه زاد الذين اهتدوا هدى .

فأولئك طبع على قلوبهم ، وهؤلاء زادهم هدى . كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] .

كما يقوي ذلك المعطوف وهو قوله سبحانه: ﴿ وَءَانْتَهُمْ نَفَوْنَهُمْ ﴾ ، فالله آتاهم تقواهم ، وهو الذي زادهم هدى .

وذهب آخرون إلى أن استهزاء المنافقين زادهم هدى^(٢) .

جاء في (تفسير الرازي): «ما الفاعل للزيادة في قوله (زادهم)؟

نقول فيه وجوه :

الأول: المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول ، يدل عليه قوله: ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ فإنه يدل على مسموع . والمقصود بيان التباين بين الفريقين .

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٥٠ .

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ٦١/ ٣ .

فكانه قال: هم لم يفهموه ، وهؤلاء فهموه .
والثاني: أن الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .

وكانه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى ، والمهتدين زادهم هدى .
والثالث: استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى^(١) .
والذي يترجح عندي أن الله زادهم هدى بهذه الأسباب ، فهذه أسباب جعلها الله تزيد في هداهم والله أعلم .
﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ .

قيل: إن المعنى أعانهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم^(٢) .
وفي (تفسير الرازي): «قيل فيه إن المراد آتاهم ثواب تقواهم . وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار ، يعني بين لهم التقوى . وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا»^(٣) .

* * *

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨] .

* * *

أي لم يعتبروا بما مر من الأحداث في الأمم الماضية وعاقبتهم . ولم يعتبروا ويتعظوا بالآيات واستماعهم إلى رسول الله ﷺ . فماذا ينتظرون؟ وبم ينتفعون؟

(١) تفسير الرازي ٥٠/١٠ .

(٢) البحر المحيط ٧٩/٨ .

(٣) تفسير الرازي ٥٠/١٠ .

فلم يبق إلا الساعة أن تأتيهم فجأة فلا ينفعهم عند ذلك إيمان ولا ذكرى .

والساعة قريبة ، فقد جاءت علاماتها ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ .

والأشراط هي العلامات . جاء في (روح المعاني) : «وقوله تعالى ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها وأماراتها . . . تعليل لمفاجأتها ، على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة ، إذ جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من مبادي إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة» (١) .

وجاء في (تفسير الرازي) : «يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة ، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة» (٢) .

وقد نقول : ولم قال (أشراطها) ولم يقل (علاماتها) ؟
والجواب أن «أشراط الشيء أوائله . . . ومنه أشراط الساعة . . .
وأشراط كل شيء ابتداء أوله» (٣) .

والذي جاء من علامات الساعة آنذاك أوائلها .

وقد نقول : ولم قال : ﴿ فَقَدْ جَاءَ ﴾ ولم يقل (فقد جاءت) ؟
والجواب أن كلا التعبيرين صحيح فصيح ، غير أن التأنيث في نحو هذا التعبير يفيد الكثرة كما هو معلوم في اللغة (٤) .

(١) روح المعاني ٥٢ / ٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٥١ / ١٠ .

(٣) لسان العرب (شرط) .

(٤) انظر (معاني القرآن) للفراء ٤٣٥ / ١ وانظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ٩٤ .

والأشراط لم تكن كثيرة في زمن الرسول بل هي أوائلها .

فناسب التذكير .

﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ .

أي وماذا تنفعهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة؟

جاء في (روح المعاني): «أي فكيف لهم ذكراهم ، على أن (أنى) خبر مقدم ، و(ذكراهم) مبتدأ ، و(إذا جاءتهم) اعتراض وسط بينهما رمزا إلى غاية سرعة مجيئها . . .

وقيل (أنى) خبر لمبتدأ محذوف ، أي فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما يخبرون به فينكرونه منوطة بالعذاب» ^(١) .

وفصل بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿ إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ ؛ لأن الكلام على الساعة ومجيئها ، فقدمها على المبتدأ للاهتمام .

وجاء في (تفسير الرازي): «يعني لا تنفعهم الذكرى . . . ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] . ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات: ٢١] فيذكرون به للتحسر ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الزمر: ٧١]» ^(٢) .

قد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٠] .

فقال: ﴿ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ ﴾ باستعمال الفعل (أتى) ، وقال في آية

(١) روح المعاني ٥٢/٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٥٢/١٠ .

محمد هذه: ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ فقال (جاءتهم) باستعمال الفعل (جاء) ، فما الفرق؟

فنقول: ليس هذا هو الاختلاف الوحيد ، وإنما هناك اختلاف آخر ، فقد استعمل أداة الشرط (إن) في آية الأنعام ، واستعمل (إذا) في آية محمد ، وذلك أن (إن) - كما هو مقرر في علم النحو - إنما هي للأمور المشكوك فيها أو النادرة أو الموهومة أو المستحيلة أو القليلة الحصول .
(وإذا) إنما هي للأمور الكثيرة والمقطوع بحصولها .

والكلام في آية الأنعام إنما هو افتراض وسؤال عن أمر لو كان فكيف سيكون الحال؟ وذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي أخبروني لو حصل هذا أغير الله تدعون؟

ونحو ذلك كل ما ورد في القرآن الكريم من استعمال (أرأيتكم) و(أرأيتم) فإنه يستعمل معها (إن) ولا يستعمل (إذا) .

وأما آية محمد فهي فيما هو واقع أو قريب الوقوع لا شك في حصوله ، فقد ذكر أن الساعة قريبة وأن علاماتها قد جاءت فلم يبق إلا مجيئها .

وهذا أقرب إلى الحصول وأدل على الوقوع ، فجاء بـ (إذا) التي هي للكثير الحصول أو المتيقن والمقطوع بحصوله^(١) .

وأما استعمال (جاء) و(أتى) فإنه ذكر في الفرق بينهما أن الإتيان مجيء بسهولة وأن المجيء لما هو أصعب وأشق^(٢) . وأن المجيء في آية محمد أشق ؛ ذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُنْكُرُونَ ﴿٤٠﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١] .

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٥٩ وما بعدها (معاني أدوات الشرط - إن ، إذا) .

(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) ٤٠ .

فذكر أنهم يدعون الله ولا يدعون غيره ، وأنه سبحانه يكشف ما يدعون إليه إن شاء .

وأما في آية محمد فقد قال : ﴿ فَأَنذَرْتَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ أي لا ينفعهم شيء ، فلم يذكر أنهم يدعون وما إلى ذلك . وهذه الحال أصعب وأشق مما ورد في الأنعام .

فجاء لما هو أصعب وأشق بـ (جاء) .

ونحو ذلك قوله سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣١] فاستعمل (جاء) لمجيء الساعة ، وهي نظير آية محمد .

فكل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

* * *

إن هذه الآية مناسبة لما قبلها ، فإن الآية التي قبلها هي في الكلام على مجيء الساعة ، وذكر في هذه الآية النجاة فيها .

والنجاة في الساعة إنما تكون بأمرين :

الأول : هو التوحيد وذلك قوله : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ولا ينجو أحد من غير الاعتقاد بالتوحيد .

والآخر : هو مغفرة الذنوب وهو ما يتعلق بالعمل وذلك قوله : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ .

فالنجاة والفوز في الساعة إنما يكونان بهذين الأمرين اللذين ذكرهما سبحانه في الآية .

وقدم التوحيد على الاستغفار ؛ لأنه الأهم ولأنه لا تكون مغفرة لمن لم يوحد الله بل سيحبط أعمالهم .

ثم ذكر أن الله يعلم أحوالكم في التصرف والعمل والاستقرار وما تعملون فيهما .

وفي القلب والمثوى يكون العمل للنجاة أو للعقوبة في الآخرة .

وذكر الرازي أمراً آخر للمناسبة فقال : «ولبيان المناسبة وجوه :

الأول : هو أنه تعالى لما قال : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ قال : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يأتي بالساعة ، كما قال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْأَافِئَةُ ﴾ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : ٥٧-٥٨] .

وثانيها : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ وهي آتية ، فكأن قائلًا قال : متى هذا؟ فقال : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فلا تشتغل به ، واشتغل بما عليك من الاستغفار ، وكن في أي وقت مستعدًا للقائها . ويناسبه قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَغْفِرْ لَذَنُوبِكَ ﴾ .

الثالث : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ينفعك .

فإن قيل : النبي عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بذلك ، فما معنى الأمر؟

نقول عنه من وجهين :

أحدهما : فاثبت على ما أنت عليه من العلم ، كقول القائل لجالس يريد القيام : اجلس ، أي لا تقم .

ثانيهما: الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام والمراد قومه ،
والضمير في (أنه) للشأن»^(١).

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يفيد طلب الثبات على ما هو عليه
من العلم بذلك ، وإلا فإنه ﷺ أعلم الناس بذلك ، وهو نظير قوله
سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْيَتِيمِ أَتَىٰ اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ١] أي: استمر على ذلك ، وإلا
فهو أتى المكلفين لله سبحانه. وهو أول من دعا إلى التوحيد.

والدخول في الإسلام إنما يكون بالنطق بالشهادتين .
وفسر صاحب (الكشاف) ذلك بقوله: «فأثبت على ما أنت عليه من
العلم بوحدانية الله»^(٢).

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

قل في ذلك أقوال ، منها أن ذلك يدل «على التواضع وهضم
النفس ، إذ أمره بالاستغفار ، ومع غيره بالاستغفار لهم»^(٣).

وإلا فهو ﷺ معصوم من الذنوب .

وقيل: «هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب ، وحاشاه من
ذلك»^(٤).

وجاء في (النكت والعيون): «﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب .

الثاني: استغفر الله ليعصمك من الذنوب»^(٥).

(١) تفسير الرازي ٥٢/١٠ .

(٢) الكشاف ١٣١/٣ وانظر روح المعاني ٥٥/٢٦ .

(٣) البحر المحيط ٨٠/٨ وانظر الكشاف ١٣١/٣ .

(٤) تفسير الرازي ٥٢/١٠ .

(٥) النكت والعيون ١٣٢/٤ .

وقيل : «أي لتستن أمتك بستك» ^(١).

وجاء في (التحرير والتنوير) : «﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ ...

وما يستغفر منه النبي ﷺ ليس من السيئات لعصمته منها ، وإنما هو استغفار من الغفلات ونحوها» ^(٢).

ونود أن نقول هنا :

إن الأمر بالاستغفار قد لا يكون عن ذنب ، وإنما هو من العبادات القولية ، فقد يرى العبد أنه لا يفي حق الله في الطاعة - وهو كذلك - فيستغفر ربه . أو إن الإنسان قد يكون غافلاً عما ينبغي أن يفعل ، أو غافلاً عما يفعل مما لا يحسن فعله ، أو ما لا يحسن من قول ، أو يرى أنه قصر عما اعتاد عليه من الطاعة وفعل الخير كما قيل : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) ، أو غير ذلك ، فيكون الاستغفار جابراً لذلك . كما أنه هو من باب الاستزادة من الخير والطاعة .

وقد أمر ربنا رسوله بالاستغفار في مواطن ليس فيها عمل ينبغي الاستغفار منه ، بل ربما يكون ذلك من باب إتمام النعمة والشكر عليها ، وذلك نحو قوله في سورة النصر : «﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر : ١ - ٣] .

وقد يكون من أمر لا علم له ﷺ بحقيقته ففضى ، أو قال بما توفر من

(١) تفسير الثعالبي ٢٣٧/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٦ .

الأدلة ، فبين الله حقيقة الأمر وأمره بالاستغفار ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٠٥ ﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ١٠٦ ﴾ وَلَا تُجَدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ ﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ ﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩ ﴾ [النساء : ١٠٥ - ١٠٩] ... إلى آخر الآيات .

وذلك في حادثة حكم بها أو كاد لمنافق على مسلم حتى بين الله له ذلك وفضح أمر المنافق وأمره ربنا بالاستغفار^(١) .

وكان الأنبياء يستغفرون الله . وقد يكون استغفارهم عن أمر رأوه أنه خلاف الأولى مما ليس لهم به علم ، أو لو لم يكن لكان أفضل ، وذلك نحو ما ذكره ربنا عن نوح عليه السلام حينما غرق ابنه مع الكافرين فنادى ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنِّي وَعَدَكَ الْحَقَّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود : ٤٥] ظاناً أن ربه وعده بنجاة أهله أجمعين فقال له ربه : ﴿ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ١٥ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٦ - ٤٧] .

ومن ذلك ما ذكره عن نبي الله داود في الحكم بين الخصم إذ تسوروا المحراب فقال ربنا فيه : ﴿ وَطَنَ دَاوُدَ إِنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ٢٤ ﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا عِنْدَنَا لُزْلَفَىٰ وَحُسْنَ مَتَابٍ ﴾ [ص : ٢٤ - ٢٥] .

وقد دعا سيدنا إبراهيم ربه ليغفر له خطيئته يوم الدين ولم نعلم أن له

(١) انظر فتح القدير ١/٤٧٣ وما بعدها ، روح المعاني ٥/١٤٠ .

خطيئة ، فقد قال سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] .

وقد سأل موسى ربه أن يغفر له ولأخيه بعد اتخاذ قومه العجل إلها حين أضلهم السامري فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] .

كما دعا ربه أيضاً بالمغفرة بعدما أخذتهم الرجفة حينما ذهبوا لميقات ربهم فقال: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] .

وقد يدعو الرسول بالمغفرة له وللمؤمنين طلباً لمرضاة الله واستزادة من الخير ، وليس لأمر أحدثوه يقتضي طلب المغفرة ، وذلك نحو ما دعا سيدنا نوح له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات قائلاً: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] .

وكما دعا سيدنا إبراهيم قائلاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] .

ثم إن الاستغفار قد يكون لجلب الخير ودفع الشر وللمتناع الحسن في الدنيا كما هو في الآخرة . والإكثار منه يزيد في الخير ويدفع الشر ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣] وذلك ما قاله سبحانه لنبيه عليه السلام وأمره بتبليغه .

وكما قال سبحانه على لسان سيدنا نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] .

وكما قال على لسان نبي الله هود إلى قومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢] .

وأما الاستغفار من الذنب فهو سبيل من سبل النجاة ، والمذنب ينبغي أن يستغفر ربه ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

وأما قوله سبحانه لرسوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ﴾ فالذي يترجح في الظن أنه من باب هضم النفس وأنه تعليم لعباده ، فإنه إذا كان الرسول مأمورًا بالاستغفار من الذنب مع أنه لم يذنب ، فكيف حال غيره ممن غرق بالذنوب وأحاطت به الخطايا؟!

وقد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فذكر معه المؤمنين والمؤمنات .

وقال في غافر: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَسِبْغَ
يَحْمَدِ رَبِّكَ بِالْعِشَى وَالْأَبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥] فلم يذكر معه المؤمنين
والمؤمنات ، فما الفرق؟

والجواب أنه في سياق آية محمد ذكر المؤمنين ممن قتل في سبيل الله ، وذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنه يدخلهم الجنة ، وذكر الذين أوتوا العلم من أصحاب رسول الله ، وذكر الذين اهتدوا وزادهم هدى وآتاهم تقواهم .

فطلب منه الاستغفار للذين آمنوا .

وأما في آية غافر فلم يذكر معه أحدًا من المؤمنين ، وإنما ذكر موسى وفرعون وصبر موسى على أذى فرعون ، وذكر الذين يتحاجون في النار من الذين جاءتهم رسلهم بالبينات .

وقال قبل الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
الْكِتَابَ﴾ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣ - ٥٤] .

وذكر بعد الآية الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم .

ولم يذكر غير الرسول من المسلمين في السياق .

فقال لرسوله: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي: اصبر على ما يصيبك من الأذى وعلى التبليغ كما صبر من قبلك من الرسل . وقد قال له في آية أخرى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

وطلب منه الاستغفار والتسبيح بالعشي والإبكار . ومداومة التسبيح مدعاة إلى النجاة ودفع سوء ، كما قال سبحانه في يونس عليه السلام: ﴿ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۚ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٦﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ ۖ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] .

فكان كل تعبير مناسباً لسياقه الذي ورد فيه .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ .

أي: «والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكُم في معاشكم ومناجركم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكُم في حياتكم ومثواكم في القبور ، أو متقلبكُم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار» ^(١) .

وذكر هذا بعد الاستغفار في غاية المناسبة ، ذلك أن الاستغفار - كما ذكرنا - من أسباب جلب الخير ودفع سوء في الدنيا والآخرة في قلبهم ومثواهم في بيوتهم أو في القبور . فناسب ذكره بعد الأمر بالاستغفار والله أعلم .

* * *

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
الْقِسَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾
[محمد: ٢٠ - ٢١] .

* * *

«كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعلو كلمته وتمني قتل
العدو ، وكانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد
جعل ذلك باباً ومضروبة لا يتعدى ، فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال
سورة ، والمعنى تتضمن أمرنا بمجاهدة العدو وفضح أمر المنافقين»^(١) .
والمراد بقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: «سورة فيها تكليف بمحن
المؤمن والمنافق»^(٢) .

قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالفعل المضارع للدلالة على أنهم قالوه أكثر من مرة
ولا يزالون يقولون ذلك إظهاراً لشدة رغبتهم في تنزيل السورة .

وجاء بـ (لولا) التي تدل على الطلب الشديد والتمني لذلك .
وقالوا (نُزِّلَتْ) بالفعل المضعف ، ولم يقولوا (أُنزِلَتْ) للدلالة على
الاهتمام والتوكيد ، فإن من معاني هذا الفعل المضعف إفادة التوكيد^(٣) .

ويدل على ذلك الاستعمال القرآني في نحو هذا الاستعمال . فقد قال
تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] فقال (نُزِّلَ) بالتضعيف .

(١) البحر المحيط ٨ / ٨١ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ / ٥٣ .

(٣) انظر ملاك التأويل ١ / ٣٢١ وانظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ص ٦٧ وما بعدها .

وقال في موطن آخر: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنَظِّرِينَ﴾ [يونس: ٢٠] فقال (أنزل).

ومن النظر في الموضوعين يتضح الفرق بينهما.

فقد قال في سياق آية الأنعام: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِىَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيَاتٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

فانظر إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِىَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيَاتٌ﴾ والدلالة على شدة اهتمام الرسول بالإتيان بآية تدعوهم إلى الهدى ، والدلالة على شدة إعراضهم .

وليس السياق في سورة يونس كذلك ، فقد قال قبل الآية: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وبعدها: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

فالكلام على الناس عموماً.

والدلالة على التوكيد في استعمال (نزل) في آية الأنعام أظهر من أن يوضح.

وقال في موطن آخر: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

فقال (أنزل) ولم يقل (نزل).

والسياق يدل على الاختلاف بين الموضوعين في آية الأنعام وآية الرعد هذه.

فقد قال قبل الآية في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] .

وقال بعدها: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٢٨] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى [الرعد: ٢٨ - ٢٩] .

والفرق ظاهر بين الموطنين .

فدلّ الفعل المضعف على الاهتمام والتوكيد ، وذلك مما يدل على شدة اهتمام الذين آمنوا بتنزيل سورة .

وقد ذكر صاحب ملاك التأويل تعليلاً آخر في استعمال الفعلين (نُزِلَتْ) و(أُنْزِلَتْ) في آية محمد فقال: «قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾» .

فورد الفعل أولاً مضعفاً ، وثانياً غير مضعف .

ووجه ذلك - والله أعلم - أن المؤمنين هم الذين يودون نزول السورة ، وطلبهم نزولها إنما هو على ما اعتادوه جارياً في غيرها من التنجيم وتفصيل المنزّل . فالملائم هنا عبارة التضعيف .

وقوله: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إنما المراد تحصيلها بجملتها بعد كمال . وذلك مفهوم من سياق الكلام ، والملائم لما تحصيل عبارة الإنزال من غير تضعيف .

فكل من الموضعين وارد على أنسب نظم ، والعكس غير ملائم والله أعلم^(١) .

وقوله: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أي «مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال» (١).

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي نفاق أو ضعف في الدين (٢).

وفي (الكشاف) «هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بالسستهم» (٣).

﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ .

«أي تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً وغيظاً كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت» (٤).

﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ .

﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ .

عبارة تدل على الزجر والتهديد . تقول لمن تتوعده وتهدهده (أولى لك يافلان) أي ويل لك ، واشتقاقها من الولي وهو القرب . وهو اسم تفضيل يفيد قرب وقوع الهلاك .

وهو دعاء عليهم بقرب الهلاك ، بمعنى: أهلكهم الله تعالى هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك (٥).

جاء في (الكشاف): «﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم ، وهو أفعال من الولي وهو القرب . ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه» (٦).

(١) الكشاف ٣/ ١٣١ .

(٢) روح المعاني ٢٦/ ٦٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٣١ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٣١ .

(٥) انظر روح المعاني ٢٩/ ٤٩ .

(٦) الكشاف ٣/ ١٣١ .

وهذا الدعاء عليهم أنسب شيء في هذا المقام وذلك أنه سبحانه قال فيهم: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ فكأن الموت قريب منهم جداً ، فدعا عليهم بقرب الهلاك ، بل بما هو أقرب لهم من كل شر وهلاك .

لقد ورد نحو هذا التعبير في سورة القيامة ، وذلك قوله سبحانه: ﴿أَوَّلَ لَكَ فَأُولَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ ، وقد كرر التعبير في السورة ولم يكرره هنا ، وقد ذكرنا ذلك وبيننا مناسبة كل تعبير للموطن الذي ورد فيه في تفسيرنا لسورة القيامة^(١) فلا نعيد القول فيه .

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ .

الأكثر على أن هذا التعبير مستقل عما قبله ، وهو على تقدير أن (طاعة) خبر لمبتدأ محذوف ، وتقديره (أمرنا طاعة وقول معروف) أو نحو ذلك . أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف ، وتقديره (طاعة وقول معروف خير لهم) أو نحو ذلك . أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف وتقديره (طاعة وقول معروف خير لهم) أو (أمثل) .

فيكون قوله: ﴿فَأَوَّلَ لَهُمْ﴾ تعبيراً مستقلاً على معنى (ويل لهم) كما بينا .

وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ تعبيراً آخر مستقلاً .

جاء في (الكشاف): «﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف ، أي طاعة وقول معروف خير لهم»^(٢) .

(١) انظر كتابنا (المسات بيانية) - تفسير سورة القيامة ٢١١ وما بعدها .

(٢) الكشاف ٣/ ١٣١ .

وجوز بعضهم أن يكون قوله: ﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كله جملة واحدة متألفة من مبتدأ وخبر على أن (أولى) مبتدأ ، و(لهم) جار ومجرور متعلق به ، و(طاعة) خبر المبتدأ على معنى: (أجدر بهم طاعة وقول معروف) و(أخرى بهم طاعة وقول معروف).

جاء في (البحر المحيط): «وقيل (أولى) مبتدأ ، و(لهم) من صلته ، و(طاعة) خبر . . . والأكثر على أن ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستقل محذوف أحد الجزأين إما الخبر وتقديره أمثل . . . وإما المبتدأ وتقديره: الأمر أو أمرنا طاعة»^(١).

والمعنيان محتملان:

فإنه قد يكون التعبير على أن ﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ كلام مستقل ، على معنى الدعاء عليهم بقرب الهلاك .

أو على معنى أن الطاعة والقول المعروف أجدر بهم وأخرى بهم . وقد يكون كلاهما مراداً والله أعلم .

لقد ذكر أمرين في قوله سبحانه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أحدهما: يتعلق بالعمل وهو قوله (طاعة). والآخر بالقول وهو قوله (قول معروف).

وفي ذلك الخير كله: الطاعة لله ورسوله ، والقول المعروف .

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ .

أي جدّ ، والعزم الجدد .

والأصل أن يسند العزم لصاحب الأمر ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا

الْطَّلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٢٧﴾ .

وقد يسند إلى الأمر من باب الاستعارة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] .

جاء في (الكشاف): ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جدّ ، والعزم والجد لأصحاب الأمر ، وإنما يسندان إلى الأمر إسنادًا مجازيًا ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ﴾ ^(١) .
﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ .

أي «فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد ، أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم» ^(٢) لكان ذلك خيرًا لهم .

والصدق يكون في القول والعمل ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْإِسْهَامَ وَالسَّيْلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْءَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

فذكر أعمالاً منها إيتاء المال على حب الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصبر في البأساء والضراء .

وهذه صدق في العمل .

وذكر الوفاء بالعهد ، وهو صدق في القول .

(١) الكشاف ٣/ ١٣١ وانظر البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٣١ .

وقد قال عن أصحاب هذه الصفات: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فالصدق يكون في القول والعمل ، وهو المناسب للقول والعمل في قوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾.

* * *

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣] .

* * *

التفت من الغيبة إلى الخطاب فقد قال قبلها: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيًّا لَهُمْ﴾

ثم خاطبهم بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ...﴾ وذلك لتوبيخهم ، فإن توبيخ المخاطب أشد من توبيخ الغائب .

جاء في (البحر المحيط): ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ التفات للذين في قلوبهم مرض ، أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم^(١) .

(وعسى) من أفعال الرجاء ، أي : لعل ذلك يحصل منكم ، أي متوقع أن يحصل ذلك منكم . وهذا التوقع ليس منسوباً إليه تعالى ، فإنه عالم بهم وبأعمالهم ، وإنما التوقع يكون ممن عرف حالهم .

جاء في (البحر المحيط): «فَالآيَاتُ كُلُّهَا فِي الْمُنَافِقِينَ...» وهذا التوقع الذي في (عسى) ليس منسوباً إليه تعالى ؛ لأنه عالم بما كان

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين» ^(١) .

وقوله : ﴿ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يحتمل معنيين :

الأول : إن توليتم أمر الناس فأصبحتم أمراء عليهم أفسدتم في الأرض وقطعتم الأرحام .

والمعنى الآخر : إن أعرضتم ونكلتم عن الجهاد عدتم إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض وسفك الدماء وقطع الأرحام .

جاء في (الكشاف) : أي «يا هؤلاء ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمروهم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل (أن تفسدوا في الأرض) ...»

وقيل : إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات» ^(٢) .

وجاء في (تفسير ابن كثير) : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه .

﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام» ^(٣) .

وكلاهما محتمل .

وقال : ﴿ وَتَقَطَّعُوا ﴾ بتضعيف العين للدلالة على كثرة التقطيع .

(١) البحر المحيط ٨ / ٨٢ .

(٢) الكشاف ٣ / ١٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ١٧٨ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ .

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ، فإن اللعنة هي الطرد والإبعاد ^(١) .

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ .

أي : « فأصمهم عن سماع الموعظة وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى » ^(٢) .

لقد قال : (فأصمهم) ولم يقل : (فأصم آذانهم) .

وقال : ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ولم يقل : (وأعماهم) .

قيل : « وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار ، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام . . . »

فقال : (أصمهم) من غير ذكر الأذن ، وقال : (أعمى أبصارهم) مع ذكر العين ؛ لأن البصر هنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدرًا لما جمع .

فلم يذكر الأذن ، إذ لا مدخل لها في الإصمام . والعين لها مدخل في الرؤية ، بل هي الكل . ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقراً كما قال تعالى : ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ، وقال : ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ والوقر دون الصمم ^(٣) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ فذكر الأبصار ليشمل عمى العين والبصيرة . فإن البصر هو العين ، وهو أيضاً النفاذ في القلب والعلم ، وبصر القلب نظره ، وهو البصيرة أيضاً ^(٤) . قال

(١) لسان العرب (لعن) .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٨٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ / ٥٥ وانظر البحر المحيط ٨ / ٨٢ ، روح المعاني ٢٦ / ٦٩ .

(٤) انظر لسان العرب (بصر) ، تاج العروس (بصر) .

تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَخَبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] «أي لأولي العقول ، كما يقال: لفلان بصر بهذا الأمر ، أي: علم ومعرفة»^(١) والله أعلم.

وقال: ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ فقدم الصمم على العمى ؛ ذلك لأنه قال: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ وهذا متعلق بالسمع ، فقدم ما يتعلق بالسمع فقال: ﴿فَأَصْمَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وهذا متعلق بالإبصار. فذكر ما يتعلق بالبصر فقال: ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾.

فكان التقديم والتأخير مناسباً للسياق.

ومن الملاحظ في سياق هذه الآيات تقديم الأعم على الأخص.

فقد قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ والطاعة أعم من القول ، فإن القول قد يكون من الطاعة ، والطاعة تكون في عمل أو قول.

وقال: ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ والإفساد في الأرض أعم من تقطيع الأرحام.

وقال: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ واللعة أعم مما بعدها ، فالإصمام وإعماء الأبصار قد يكونان من اللعة.

وحتى أن في قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ و﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ عمومًا وخصوصًا إضافة إلى ما ذكر.

فإنه قال (أصمهم) فكان المفعول به عامًا.

ثم قال: ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَرَهُمْ﴾ فجعل العمى للبصر وهو جزء من الشخص ولم يقل (فأعماهم).
فذكر الخصوص بعد العموم.

* * *

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

* * *

لقد قال في هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فقال (يتدبرون) ،
وقال في موضع آخر: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾
[المؤمنون: ٦٨] ، وقال أيضاً: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذْكُرُوا تِلْكَ الْأَيَاتِ﴾ [ص: ٢٩]
فقال (ليذكروا) بالإبدال والإدغام.

وقد ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) استعمال هذين
الفعالين في القرآن وبيان شيء من الناحية البيانية فيهما^(١) فلا نعيد القول
في ذلك.

ونود أن نذكر هنا شيئاً مما ذكرناه هناك ، وهو أنه قال في آية محمد:
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فذكر القرآن.

وذكر في آية «ص» تدبر الآيات.

فجاء بالفعل الأطول لما هو أكثر.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ذهب قسم من المفسرين إلى أن (أم) منقطعة ، وهي بمعنى (بل

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٤٩ ومابعدا.

وهمة التقرير) فيكون المعنى: أفلا يتدبرون القرآن بل أهي مقفلة ؟

جاء في (الكشاف): «أم بمعنى بل وهمة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر»^(١).

وذهب آخرون إلى أنها متصلة فيكون المعنى: أفلا يتدبرون القرآن أم قلوبهم مقفلة؟ أي: أي شيء من هذين الأمرين حاصل؟

جاء في (روح المعاني): «﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها وانكشاف الأمر لها ، فكأنه قيل: أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها؟ فتكون (أم) متصلة على مذهب سيبويه...

وذهب أبو حيان وجماعة إلى أنها منقطعة وما فيها من معنى (بل) للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكير. والهمزة للتقرير»^(٢).

ونكر القلوب وأضاف الأقفال إليها.

ومما قيل في تنكير القلوب أنه لا يراد بها قلوب معينة ، بل هي تشمل كل قلب بهذه الصفة. ولو عرّفها لكانت تشمل قلوباً معينة.

جاء في (التفسير القيم): «وتأمل تنكير القلوب وتعريف الأقفال بالإضافة إلى ضمير القلوب ، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة.

ولو قال (أم على القلوب أقفالها) لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة»^(٣).

(١) الكشاف ١٣/٣.

(٢) روح المعاني ٢٦/٧٤ وانظر البحر المحيط ٨/٨٣.

(٣) التفسير القيم ٤٣٩.

وجاء في (الكشاف): «وأما إضافة الأقفال إليها فلائنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح»^(١).
وهذا أشد شيء في وصف القلوب بالانغلاق عن وصول التبليغ إليها.
جاء في (لسان العرب): «قال مجاهد: الرّئين أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الإقفال ، والإقفال أشد من ذلك كله»^(٢).

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

* * *

﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾.

«أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم»^(٣).
﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾.

أي زين لهم ذلك. و«التسويل تزوين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن»^(٤) «وسوّل له الشيطان: أغواه»^(٥).
وفي (الكشاف): «سهّل لكم ركوب العظائم»^(٦).

(١) الكشاف ١٣٢/٣.

(٢) لسان العرب (طبع).

(٣) روح المعاني ٧٤/٢٦.

(٤) مفردات الراغب (سول).

(٥) لسان العرب (سول).

(٦) الكشاف ١٣٢/٣.

ولم يرد التسويل في القرآن إلا في السوء ، بخلاف التزيين فإنه عام في الحسن والسوء .

قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ لَا يُؤْمِنُ وَرَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ٧] ، وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَيْنَهَا وَمَا لَهَا مِنْ فَوْجٍ ﴾ [ق: ٦] ، وقال : ﴿ وَرَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ١٢] .

وقال في السوء : ﴿ وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .
و﴿ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ .

أي «مد لهم في الآمال والأمانى» ^(١) وغرهم وخدعهم ^(٢) .

* * *

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦] .

* * *

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ .

أي إن ارتدادهم إنما هو بسبب قولهم للذين كرهوا ما نزل الله من اليهود أو من غيرهم سنطيعكم في بعض الأمر .

فإطاعتهم للذين كرهوا القرآن في بعض الأمر الذي فيه أذى للمسلمين وإعانة للكافرين على المسلمين كان سبباً لردتهم .

(١) الكشف ٣/ ١٣٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٠ .

جاء في (روح المعاني): «(ذلك) إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم...
 (بأنهم) أي بسبب أنهم (قالوا) يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ
 اللَّهُ﴾ هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن...
 ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي في بعض أموركم وأحوالكم وهو
 ما حكى عنهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا
 أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]. وقيل في بعض ما تأمرون به» (١).

وقوله: ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي «في بعض ما تأمرون به ، أو في بعض
 الأمر الذي يهتمكم» (٢).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

في (اسرارهم) قراءتان متواترتان:

إحداهما: بكسر الهمزة مصدراً للفعل (أسر).

والأخرى: بفتح الهمزة ، أي أسرارهم (٣) جمع سر.

فقوله: ﴿يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي يعلم إخفاءهم الأشياء ، سواء أسروه في
 أنفسهم أم أسروه إلى إخوانهم الذين كفروا.

جاء في (النكت والعيون): «﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ما أسر بعضهم إلى بعض من هذا القول.

الثاني: ما أسروه في أنفسهم من هذا الاعتقاد» (٤).

(١) روح المعاني ٧٥/٢٦ ، وانظر تفسير أبي السعود ١٥٩/٦.

(٢) الكشف ١٣٢/٣.

(٣) انظر النشر في القراءات العشر ٣٧٤/٢.

(٤) النكت والعيون ١٣٤/٤.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي يعلم الأشياء التي يخفونها.

فالقراءتان جمعتا المصدر والذات كالإدبار والأدبار ، والإنباء (مصدر أنبأ) والأنباء (جمع نبأ) ، والإبصار (مصدر أبصر) ، والأبصار (جمع بصر) ، والإقفال (مصدر أقفل الباب) والأقفال (جمع قفل).

جاء في (روح المعاني): «﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إخفاءهم ما يقولونه لليهود أو كل قبيح...

وقرأ الجمهور (أسرارهم) بفتح الهمزة ، أي يعلم الأشياء التي يسرونها»^(١).

والملاحظ في هذه الآية أنها مبنية على العموم.

وفي آية الحشر التي مر ذكرها ، وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] أنها مبنية على التخصيص والتبيين.

فقد قال في سياق آية محمد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ...﴾.

وقال في آية الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فذكر الذين نافقوا فخصص وبيّن.

وما في آية محمد أعم.

وقال في آية محمد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ فلم يصرح بذكرهم ، فلم يذكر من هم الذين كرهوا ما نزل الله.

وقال في آية الحشر: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فذكر أنهم يقولون للذين كفروا من أهل الكتاب.

وقال في آية محمد: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ ولم يذكر ما هو الأمر.

وذكر الأمر في آية الحشر وهو قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.

وقال في آية محمد: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فذكر ربنا أنه يعلم أسرارهم ولم يذكر ما هو ، ولا أهو صدق أم كذب.

وقال في آية الحشر: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ - ١٢] فبين ربنا كذب ما أسروه لهم وفضح أسرارهم في هذا الأمر.

ومن لطيف مراعاة المقام أنه لما ذكر في آية محمد أنه إذا ذكر القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت وذلك خشية القتال لم يقل (وإن قوتلتهم لننصرنكم) كما قال في آية الحشر التي لم يرد فيها نحو ذلك ، بل إنهم أظهروا الشجاعة في موالاتهم لأهل الكتاب فقالوا لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.

وأنهم قالوا في آية محمد: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وليس كله.

في حين قالوا في آية الحشر: ﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾.

مناسبة للمقام في كل منهما.

ففي مقام الخوف ذكروا الطاعة في بعض الأمر ولم يذكروا ما هو هذا البعض.

وفي مقام ادعاء الشجاعة قالوا: ﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ .

وهذا من لطيف مراعاة المقام .

والملاحظ أنه لم يذكر (المنافقين) باسمهم في سورة محمد بل ذكر صفاتهم على العموم باسم (الذين كفروا) الذين هم منهم .

بخلاف آية الحشر فإنه صرح باسمهم وأحوالهم .

فالسباق في آية محمد مبني على العموم .

وفي آية الحشر مبني على التخصيص والتبيين .

* * *

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧] .

* * *

أي فكيف يكون حالهم وماذا يصنعون عند قبض الملائكة أرواحهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم؟

وتقديم ضرب الوجوه على الأدبار مناسب لما تقدم من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] . فالارتداد كان بعد تبين الهدى .

وتبين الهدى يكون بالإقبال على الشيء ، والإقبال على الشيء يكون بالإقبال بوجهه عليه .

فناسب تقديم ضرب الوجوه لأنها سابقة على الإدبار .

وضرب الأدبار مناسب للارتداد ، فإن الارتداد عن الشيء إدبار عنه .

وهو - أي التقديم والتأخير - مناسب أيضًا لما جاء بعدها وهو قوله

سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨].

فاتباع ما اسخط الله يعني إقبالهم على سخط الله بوجوههم فقدم ضربها.

وقوله: ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي أدبروا عنه فناسب ضرب الأدبار.
جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ
اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾: «مَا أَصْخَطَ اللَّهَ» من الكفر والمعاصي.
﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات...

ولما كان اتباع ما أسخط الله تعالى مقتضياً للتوجه ناسب ضرب الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضياً للإعراض ناسب ضرب الدبر^(١).

* * *

﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

* * *

أي ذلك الضرب عند التوفي إنما هو بسبب اتباعهم ما أسخط الله
وأنهم كرهوا رضوانه.

وقال: (اتَّبَعُوا) بالتضعيف ولم يقل (تَبِعُوا) وذلك للمبالغة في اتباع
ما أسخط الله.

ومن الملاحظ أنه سبحانه قال: ﴿أَتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا

(١) روح المعاني ٢٦/٧٦.

رِضْوَانُهُ ﴿ وَلَمْ يَقُلْ ﴾ (اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا ما أرضاه) ذلك أن (ما) اسم موصول ، أي اتبعوا الأعمال التي تسخط الله .

وقال : ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ و(الرضوان) مصدر ، ولم يقل (وكرهوا ما أرضى الله) أي لم يقل (كرهوا الأعمال التي ترضي الله) وإنما كرهوا رضوانه .

وهذا أعظم من كراهة الأعمال التي ترضيه وأوسع ، فإن من أثار ذلك كراهة كل الأعمال التي يرضاها سبحانه وعدم فعلها ، إضافة إلى أنهم يكرهون رضاه أصلاً فيتبعون كل ما لا يرضاه سبحانه .

فإنهم لو اتبعوا أمراً واحداً مما يسخط الله لصح أن يقال (اتبعوا ما أسخط الله) غير أن كراهة رضوان الله تستدعي كراهة كل شيء وكل الأعمال التي يرضاها ربنا سبحانه ، وهذا أوسع وأعظم في الدلالة على قبحهم وعظيم معصيتهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ ولم يقل (وكرهوا ما يرضيه) ، ذلك أن المهم هو أن يحب العبد ويفعل ابتغاء رضوانه سبحانه وإن كان ما يرضيه صعباً وشاقاً وليس محبوباً عنده . وإيضاح ذلك أن بعض الأعمال التي يأمر بها ربنا ثقيلة وغير محبوبة عند الشخص ولكنه يفعلها ابتغاء رضوانه . ومن ذلك على سبيل المثال أنه سبحانه قال : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] فالقتال كما قال سبحانه كره لنا وقد أمر به سبحانه . فالمهم أن نفعل ذلك لا لأننا نحبه ولكن لأن الله أمر به مبتغين به رضوان الله . فإننا نحب رضوان الله فنفعل ما يأمر به .

ومن ذلك على سبيل المثال أن الله سبحانه أمر خليله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، ولا شك أن ذلك ثقيل على سيدنا إبراهيم غير محبوب

لا عنده ولا عند ولده ، ولكنه فعل ذلك ابتغاء رضوان الله ومحبة لرضوان الله وإن كان ما يرضيه ثقیلاً وشاقاً ليس محبوباً عنده .

وقديماً قال الشاعر في محبوبه :

لو قال تيهًا قف على جمر الغضا لو قفت ممثلاً ولم أتوقف
ولا شك أن الوقوف على جمر الغضا شاق ومكروه ولكنه يفعله امتثالاً
لأمر محبوبه ، فكيف بالعبد في إطاعة أمر خالقه ومحبوبه !!

ومن ذلك ما أمر به سيدنا موسى قوم به بعد اتخاذهم العجل أن يقتلوا أنفسهم باتخاذهم العجل توبة إلى الله كما أخبر سبحانه بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَأَتَّخَذِ الْكُفْرُ الْأَوَّلَ ﴾ [البقرة: ٥٤] فالتوبة من عبادة العجل هي قتل النفس وقد ذكرت صور لهذا القتل^(١) .

وهذا ما يرضي الله .

ولا شك أن هذا ثقیل وغير محبوب ولكنهم فعلوا ذلك حباً لرضوان الله وابتغاء رضوانه .

وقال سبحانه : ﴿ تَتَّبِعُونَ فِي أُمُورِكُمْ مَا تَنَحَّيْنَا عَنْ أُمُورِكُمْ فَلَا تَتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

ولا شك أن هذا الابتلاء ثقیل وشاق وغير محبوب ولذا قال سبحانه ﴿ فَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

(١) انظر تفسير فتح القدير ٧١/١ .

وقال سبحانه: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣] .

ولا شك أن المقصود بالذين صدقوا أنهم الذين يصبرون على الفتن ويتقون ربهم ، كما لا شك أن هذه من المكاره ، فإن الفتن ثقيلة وغير محبوبة ، وقد أمر ﷺ بالتعوذ من الفتن فقال: (تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن) (١) .

وقد قال ﷺ: (حُفَّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) (٢) .

فمن رحمته سبحانه أنه لم يقل (وكرهوا ما يرضيه) وإلا لكان دخل في هذا خلق كثير من المؤمنين ، فالمهم أن يحبوا رضوانه ويتغنوا رضوانه سواء كان الذي يريده الله ثقيلاً أم محبوباً .

فليس المهم أن تحب العمل ولكن المهم أن تعمل ابتغاء رضوان الله وأن تحب رضوانه .

وقيل في هذا التعبير شيء آخر ، ذلك أنه قال: ﴿ أَتَبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ۚ ﴾ فجاء بالسخط بالفعل وبالرضوان بالاسم . والاسم أثبت من الفعل وأدوم ، فالأصل هو الرضوان ، والسخط عارض لسبب ، وأن الرضوان من رحمته سبحانه ، وإن رحمته سبقت غضبه وقد وسعت كل شيء ، بخلاف السخط فإنه إنما يكون لسبب يفضيه سبحانه ، فالأصل هو رضوانه سبحانه وهو سابق . فهؤلاء اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ففعلوا ما يبعد رضا الله عنهم .

(١) انظر صحيح مسلم (باب في عذاب القبر والتعوذ منه) مختصر صحيح مسلم رقم الحديث ٤٩٣ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري رقم الحديث ١٩٦٩ ص ٢٨٢ .

ولو قال (وكرهوا ما يرضي الله) لدل على أن الرضا غير موجود فكرهوا ما يوجده ويستدعيه من الأفعال .

كما أنه لو قال (اتبعوا سخط الله) لدل على أن السخط موجود وهو من صفاته الثابتة وقد اتبعوا هذا السخط .

فالتعبير يدل على عظيم رحمته سبحانه بعباده .

جاء في (تفسير الرازي): «وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: (ما أسخط الله) ولم يقل (ما أَرْضَى الله) وذلك لأن رحمة الله سابقة ، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان ، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب .

فقال (رضوانه) لأنه وصف ثابت لله سابق ولم يقل (سخط الله) بل (ما أسخط الله) إشارة إلى أن السخط ليس بثبوته كثبوت الرضوان . . .

ورضوان الله أمر يكون منه الفعل . وغضب الله أمر يكون من فعله»^(١) .

* * *

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩] .

* * *

الضغن: الحقد والبغضاء والعداوة^(٢) .

بعد أن ذكر الله سبحانه أنه يعلم إسرارهم وإخفاءهم وما تنطوي عليه قلوبهم قال في هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ . . .﴾

(وأم) هذه هي المنقطعة بمعنى (بل) والهمزة .

(١) تفسير الرازي ٥٨/١٠ .

(٢) لسان العرب (ضغن) .

والمعنى : بل أحسب الذين في قلوبهم مرض ؟

و(أن) هي المخففة من الثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف .

جاء في (تفسير أبي السعود) في تفسير هذه الآية : «أي بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن لن يخرج الله أحقادهم ولن يبرزها لرسوله ﷺ وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة»^(١) .

ومفهوم الآية أن ربنا سيطل حسابناهم وأن كل ما أخفوه أو يخفونه في المستقبل سيخرجه ربنا ويفضحهم .

* * *

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلَعْرِفَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٠] .

* * *

أي : لو نشاء «لعرّفناكهم ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك .

(بسميهم) بعلامتهم ، وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة يُعلمون بها»^(٢) .

ثم أكد أنه ﷺ سيعرفهم في (لحن القول) «أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره»^(٣) .

فدل ذلك على أنه سبحانه سيعرّف رسوله مرضى القلوب بأعيانهم ويظهر له بواطنهم فلا يبقى منهم مستور ، وتلك أقبح فضيحة وأذلها لهم .

(١) تفسير أبي السعود ١٦١/٦ .

(٢) الكشف ١٣٣/٣ .

(٣) تفسير الرازي ٥٩/١٠ .

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ بضمير المخاطبين ولم يقل (والله يعلم أعمالهم)؛ لأن الخطاب عام لجميع المكلفين، أو لأن ذلك لغرض الانتقال لخطاب المؤمنين في الآية بعدها وهي قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

جاء في (البحر المحيط): «والله يعلم أعمالكم خطاب عام يشمل المؤمن والكافر. وقيل خطاب للمؤمنين فقط» (١).

* * *

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

* * *

السياق في الجهاد والقتال ولذا كان الابتلاء والاختبار فيما ذكر من أمر المجاهدين والصابرين، بل إن السورة ذكر فيها ما يتعلق بالقتال في عدة مواطن حتى أن السورة تسمى سورة القتال أيضاً.

فقد قال سبحانه في أوائل السورة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ...﴾ [محمد: ٤].

وقال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقال بعد الآية: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

فناسب ذكر الابتلاء لمعرفة المجاهدين والصابرين .

والابتلاء إنما يذكر نوعه بحسب السياق . من ذلك مثلاً أن الله سبحانه قال في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بَشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَأَلَّهُ أَيْدِيكُمْ وَمِمَّا حُرِّمَ﴾ [المائدة: ٩٤] ذلك أن السياق في الصيد ، فقد قال بعد الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] .

وقال بعدها: ﴿أَحَلَّ لَكُم صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ [المائدة: ٩٦] .

فناسب ذكر الابتلاء بالصيد .

وقال سبحانه في البقرة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بَشَىءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] .

والسياق في المصائب ، فقد قال قبل الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] .

وقال بعدها: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فناسب ذكر الابتلاء بما ذكر .

وقال في آل عمران: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

والسياق في الأموال والأنفس .

فقد قال سبحانه قبل الآية: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

وقال أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهذا من الابتلاء بالأنفس .

وقال قبل الآية أيضاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ بَلْ هُوَ سَرُّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].
وهذا من الابتلاء بالمال.

فالابتلاء يذكر نوعه بحسب السياق.

وقد يكون الابتلاء عامًّا في الخير والشر كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قد تقول: لقد قال في مواطن عدة (لنبلونكم) و(ليبلونكم) بالتوكيد بنون التوكيد.

وقال سبحانه في آية الأنبياء: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فلم يؤكد الفعل فلم ذاك؟

والجواب أن الآيات المؤكدة بالنون إنما هي وعد بالابتلاء في المستقبل، فإن نون التوكيد تفيد الاستقبال ولا تكون للحال.

وأما آية الأنبياء فهي عامة وتقع دائماً، فهي واقعة في الماضي والحال والاستقبال. قال تعالى في الآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فهو بلاء لكل نفس وليس خاصًّا بقوم دون قوم ولا بزمان دون زمن، فبلاء بالفعل عامًّا في الحال والاستقبال، فإن الفعل المضارع قد يفيد الاستمرار التجديدي كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَضْطُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله: ﴿رَبِّ أَلَذِّ يَحْيَى وَيَمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ تُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ يَبْدَكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّاهِدِينَ ﴾ .

أي حتى نعلم هؤلاء علماً يتعلق به الجزاء وإلا فعلم الله قديم أزلي^(١) .

﴿ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

« ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسنهما من قبيحها »^(٢) .

فالآية ذكرت الابتلاء بالأعمال والأقوال .

فقوله : ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّاهِدِينَ ﴾ ذكر البلاء بالأعمال .

وقوله : ﴿ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ذكر البلاء بالأقوال : ما يخبرون به ويذكرونه وما يخبر عنهم .

جاء في (تفسير أبي السعود) : « ﴿ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ما يخبر عن أعمالكم فيظهر حسنهما وقبيحها »^(٣) . وهذا ما يخبر عنهم .

وجاء في (روح المعاني) : « وجوز كون المراد بها أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أن إضافتها للعهد ، أي : ونبلو أخبار إيمانكم وموالاتكم فيظهر صدقها وكذبها »^(٤) .

وجاء في (أضواء البيان) للشنقيطي : « ﴿ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ فنعرف الصادق منكم من الكاذب »^(٥) .

(١) انظر تفسير أبي السعود ١٦٢/٦ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٦٥٨/٧ .

(٢) الكشف ١٣٣/٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٦٢/٦ .

(٤) روح المعاني ٧٨/٢٦ وانظر تفسير الرازي ٦٠/١٠ .

(٥) أضواء البيان للشنقيطي ٦٢٨/٧ .

وهذا ما يخبرون به والله أعلم .

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] .

* * *

قال تعالى في الآية الأولى من السورة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ .

فقال: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ بالفعل الماضي ، وذلك لما عملوه في الماضي .

أما في هذه الآية فقد قال: ﴿وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ ليفيد أن ذلك لما يستقبل من أعمالهم .

فدل في الآيتين أنه أضل أعمالهم الماضية وسيحيط أعمالهم المستقبلية .

لقد قال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فنفى بـ (لن) التي لنفي المستقبل .

وقال: ﴿وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ بمقابل ذلك ، فجاء بالسين التي تفيد الاستقبال .

و(لن) في النفي تقابلها السين أو سوف في الإثبات ، فقولنا (لن يفعل) نفى لقولنا (سيفعل) أو (سوف يفعل)^(١) .

ولما كان الكلام على ما يستقبل من أفعالهم في الكفر والصد عن

(١) انظر كتاب سبويه ١/ ٤٦٠ ، ١/ ٦٨ .

سبيل الله وقد تكون كثيرة ومتنوعة ومتعددة وزاد على كفرهم وصددهم عن سبيل الله مشاقة الرسول أي مخالفته وعداوته أكد ذلك بـ (إِنَّ) فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

وكان الخبر مؤكد أيضا في النفي والإثبات.

فإن (لن) تفيد تأكيد النفي في المستقبل^(١). والسين وسوف تفيدان تأكيد حصول الفعل في المستقبل^(٢).

فكانت الآية مؤكدة في بدايتها وفي الإخبار في النفي والإثبات وهو ما يقتضيه المقام.

وناسب ذلك التوكيد في هذه الآية وعدم التوكيد في الآية الأولى أعني قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ يعني لن يضرروا الله شيئا من الضرر ولا شيئا من الأشياء^(٣).

﴿وَسَيَحْطِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ «أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم»^(٤).

وقد ذكرنا الفرق بين (أضل أعمالهم) و (أحبط أعمالهم) وقد بينا أن (أحبط أعمالهم) أشد فإن معنى (أضل أعمالهم) أضاعها. ومعنى (أحبط أعمالهم) أي أمانتها وأهلكها.

لقد قال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ ليدل على أن مشاقة الرسول

(١) المفصل ٢/ ٢٠٠ ، شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢٦٠ .

(٢) انظر الكشف: قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] ١/ ٢٤١ ، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] ١/ ٤٣٤ .

(٣) انظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩ .

(٤) الكشف ٣/ ١٣٣ .

إنما هي مشاقة لله . وفيه تعظيم لرسوله أي تعظيم .

جاء في (تفسير الرازي): «وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه ، وليس كذلك بل الشقاق مع الله فإن محمداً رسول الله ما عليه إلا البلاغ»^(١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ بكفرهم وصدهم (شيئاً) من الأشياء ، أو شيئاً من الضرر ، أو لن يضرُوا رسول الله ﷺ بمشاقته شيئاً . وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفضيع مشاقته»^(٢).

وقال: ﴿وَسَيَحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ فلا يصلون إلى أغراضهم من مشاقة الله ورسوله .

قد تقول: قد يقرن ربنا مشاقة الرسول بمشاقة الله وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] ، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٤] .

وقد يفرد الله بالمشاقة كقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤] .

وقد يفرد الرسول بالمشاقة كآية محمد هذه وهو قوله: ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾ ، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ [النساء: ١١٥] .

فلم ذاك؟

فنقول: إن كلاً بحسب سياقه الذي ورد فيه .

(١) تفسير الرازي ٦٠/١٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٦٢/٦ .

فآية الأنفال إنما هي في كفار قريش الذين خرجوا لمحاربة الرسول في بدر ، فهي مشاققة لله في الشرك به ، ومشاققة لرسوله لمحاربته . والكلام على وقعة بدر . فناسب ذكر مشاققة الرسول مع مشاققة الله .

وأما آية الحشر فهي قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ يَأْتِيهِمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٤] .

فذكر أولاً مشاققة الله ورسوله ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ ﴾ فذكر الله وحده ، ذلك أن الآية في سياق جلاء بني النضير عن المدينة ، وقد توجه إليهم رسول الله بالمؤمنين معه ليجلوهم عن المدينة ، وقد هموا بقتله ﷺ واثمروا عليه وأجمعوا على الغدر به ^(١) ، ودس إليهم المنافقون أنهم سينصرونهم وأنهم إن أخرجوا فسيخرجون معهم ، كما قال سبحانه في السورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١] . فأمكن الله رسوله منهم وأجلاهم ومكنه الله من أموالهم وديارهم من غير قتال ، كما ذكر سبحانه في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ الْآيَةِ ﴾ [الحشر: ٢] .

فهم شاقوا الله ورسوله ، غير أنه لم يحصل بينهم قتال وقذف الله في قلوبهم الرعب . فقال أولاً : ﴿ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فذكر الرسول لما كان بينهم من المواجهة والمحاورات ومحاولات الغدر به .

ثم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ ذلك لأنهم خرجوا من غير مواجهة مع الرسول والمؤمنين ولكن الله سبحانه قذف في قلوبهم الرعب.

فالفرق بين آية الحشر وآية الأنفال أن آية الأنفال في معركة بدر وقد حصل القتال بين المسلمين وكفار قريش فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الموضعين.

وأما آية الحشر فكانت المشاقة لله وللرسول في محاولة الغدر برسول الله ومبالأة المنافقين لهم على رسوله فقال أولاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ غير أنه لم يحدث بينهما قتال، فاختلف الحال عما في بدر، وانتهت المشاقة مع رسوله في هذا الأمر، وبقيت المشاقة لله في عدم الإيمان برسوله فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ولم يذكر الرسول.

فكان التعبير مناسباً لحالة المشاقة في أول الأمر وآخره.

هذا إضافة إلى أن التعبير يعني أن مشاقة الله هي مشاقة لرسوله أيضاً. فمن يشاق الله فقد شاق رسوله أيضاً.

جاء في (روح المعاني): «والاقتصار على ذكر مشاقته عز وجل لتضمنها مشاقته عليه الصلاة والسلام، وفيه من تهويل أمرها ما فيه»^(١).

وأما آية النساء وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥) فإنه لم يذكر في الآية مشاقة الله، فإن الأمر مختلف، ذلك أن الآية نزلت في سياق سرقة بعض المنافقين طعاماً وسلاحاً واتهموا رجلاً صالحاً من المسلمين وصدقهم رسول الله.

فقد قال تعالى في الحادثة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾^(١٥٦) وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَفْوَرًا رَّحِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴿١٠٦﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٧] (١).

فالمسألة ليست في مسألة عقيدة أو حرب بين مسلمين وكافرين ، ولكن في مسألة خاصة حكم بها الرسول بحسب ظاهر الأمر فقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۖ ﴾ . فالمسألة خاصة برسول الله ﷺ ، فلم يذكر مشاقة الله .

فإنه لما كان السياق في آيتي الأنفال والحشر في المشاقة في العقيدة مع كفار قريش أو مع أهل الكتاب ذكر مشاقة الله .

ولما كانت المشاقة في مسألة أخرى خاصة بحكم الرسول في مسألة ذكر مشاقة الرسول .

والآية تدل أيضاً على أن مشاقة الرسول إنما هي مشاقة لله تعالى ، ولذا قال في الآية فيمن يشاق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۖ ﴾ .

ولئلا يظن أن مشاقة الرسول وحده لا تفضي إلى عقوبة الله حتى تقترن بمشاقة الله ذكر أن عاقبة من يشاق رسول الله جهنم وساءت مصيراً .

هذا وقد قال سبحانه بعد الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦] . وهذه مشاقة لله وإن لم يذكر لفظ المشاقة .

وأما آية محمد وهي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ فإن قوله في الآية: (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) إنما هي مشاقة لله في المعنى .

فالآية في مشاققة الله ومشاققة رسوله .

فكل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه بحسب نوع المشاققة ودرجتها والله أعلم .

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] .

* * *

كرر لفظ الطاعة مع الرسول فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ .

وفي مواطن أخرى لا يكرر الطاعة مع الرسول فيقول مثلاً: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] .

ومن الملاحظ أنه حيث كرر لفظ الطاعة مع الرسول فإن السياق ورد فيه ذكر الرسول . وحيث لم يكرر فالسياق لله وحده^(١) .

وقد كرر لفظ الطاعة في هذه الآية ، وقد ذكر الرسول قبلها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ...﴾ .

والآية كأنها مقابلة للآية قبلها وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] «فوصف الإيمان في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقابل وصف الكفر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

وطاعة الله مقابل الصد عن سبيل الله .

وطاعة الرسول ضد مشاققة الرسول .

والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا»^(٢) .

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) باب التوكيد ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦ / ١٢٧ .

وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ .

أي بالمعاصي المحبطة للعمل كالرياء والمن والأذى على الصدقة وغيرها من المبطلات كما قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

جاء في (تفسير أبي السعود): «ولا تبطلوا أعمالكم بما أبطل هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها»^(١) .

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤] .

* * *

لقد أكد عدم المغفرة لهؤلاء الذين ماتوا وهم كفار فقال: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فجاء بالفاء في خبر الاسم الموصول لتشبيهه بالشرط .

والفاء تقترن بجواب الاسم الموصول المشبه بالشرط ، وهي قد تكون للتوكيد إضافة إلى ذلك . ألا ترى أنه قال في آية أخرى في السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] .

فقال: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ ولم يأت بالفاء ، فلم يقل (فلن يضرروا الله شيئاً) بخلاف الآية الرابعة والثلاثين ، ذلك أن المذكورين فيها ماتوا وهم كفار ، فأكد عدم المغفرة لهم ، بخلاف الآية الأخرى .

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ

أَحَدِهِمْ قِتْلٌ لِّلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴿٩١﴾ [آل عمران: ٩١] ، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] .

فقال في الذين ماتوا وهم كفار: (فلن يقبل) بالفاء . ولم يقل نحو ذلك فيمن لم يذكر فيهم أنهم ماتوا على ذلك ^(١) .

* * *

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُبَهُ أَعْمَلُكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] .

* * *

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ .

أي «لا تضعفوا ولا تذلوا للعدو ، ولا تدعوا إلى السلم وهو المسالمة» ^(٢) والصلح .

﴿وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ﴾ .

أي «الأغلبون لأعدائكم الأفهرون لهم» ^(٣) .

«وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ﴾ يحتمل موضعين:

أحدهما: أن يكون في موضع الحال ، والمعنى: لا تهنوا وأنتم بهذه الحال .

والمعنى الثاني: أن يكون إخبارًا مقطوعًا . . . وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) باب (تشبيه الاسم الموصول بالشرط) ١٠٩/٤ وما بعدها .

(٢) الكشف ١٣٤/٣ ، وانظر البحر المحيط ٨٥/٨ .

(٣) انظر الكشف ١٣٤/٣ ، أضواء البيان للشنقيطي ٦٣٢/٧ .

مَعَكُمْ ﴿١﴾ معناه بنصره ومعونته ﴿١﴾ .

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ .

أي ناصركم .

جاء في (روح المعاني): «﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي ناصركم ، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضرعة» (٢) .

﴿وَلَنْ يَرِيَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ .

أي لن يظلمكم (٣) ، أو لن ينقصكم (٤) .

وهو «من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ حميم أو حربته» (٥) . «أو أخذت له مالا . جاء في الحديث «من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله» (٦) .

واختيار الفعل (يتر) مضارع (وتر) اختيار في غاية اللطف والمناسبة في هذا المقام ، ذلك أنهم في حالة حرب وقاتل وقد نهاهم عن الدعوة إلى السلم ، والحرب مظنة القتل فقال: ﴿وَلَنْ يَرِيَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي لن يقتلها ويتركها إياها ، وهي أعز شيء وأعلى ما يملكون .

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿وَلَنْ يَرِيَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ .

وقال في آية أخرى في السورة: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

(١) المحرر الوجيز ٦٦٠ / ٧ .

(٢) روح المعاني ٨٠ / ٢٦ .

(٣) البحر المحيط ٨٥ / ٨ .

(٤) لسان العرب (وتر) .

(٥) الكشف ١٣٤ / ٣ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٦٤ / ٣ .

[محمد: ٤] ، فقال: ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ وهم في حالة قتال أيضاً ، فما الفرق؟


والجواب أولاً أن قوله: ﴿ وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلَكُمْ ﴾ خاطبهم وهم أحياء ، والحي هو الذي يوتر وليس الميت .

وأما في الآية الأخرى فالمذكورون أموات قد قتلوا ، فلا يصح أن يقال (ولن يترهم أعمالهم) لأن الميت لا يشعر بالوتر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال بعد قوله: ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ، والهداية نقيض الإضلال وليست نقيض الوتر .

فلما قال: ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ كانت عاقبة عدم إضلال الأعمال أن يهديهم إلى الجنة كما ذكرنا في تفسيرنا للآية .
فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾ [٣٦]  إِنَّ يَسْتَلْكُمْ هَا فِيْ حِفْظِكُمْ تَحَلُّوْا وَيُخْرِجْ أَصْغَنَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦] . [٣٧]

* * *

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما نهى عن الدعوة إلى السلم في الآية السابقة ذكر في هذه الآية أن الدنيا إنما هي لعب ولهو فلا تتركوا الجهاد بسببها وتركوا إليها ، فذلك مما يضعفكم ويجعل العدو يستهين بكم .
جاء في (المحرر الوجيز): «قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

تحقير لأمر الدنيا ، أي : فلا تهنوا في الجهاد بسببها» ^(١).

وجاء في (التحرير والتنوير) : «﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وهذا تحذير من أن يحملهم حب لذائد العيش على الزهادة في مقابلة العدو ويتلو إلى مسالمتهم فإن ذلك يغري العدو بهم» ^(٢).

وقدم اللعب على اللهو «لأن اللعب زمانه الصبا ، واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب» ^(٣).

«فبدأ باللعب ، وهو ما يقع في دور الطفولة والصبا ، وهذا هو الأصل ، وإن كان يطلق اللعب أحياناً على نقيض الجد كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة : ٦٥] وقوله : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٣] .

ثم ذكر اللهو وهو ما يكون في دور الفتوة والشباب . ثم إن اللهو أعم من اللعب ، فاللهو يقع للصغير والكبير» ^(٤).

قد تقول : لقد قدم ربنا اللهو على اللعب في آيتين هما قوله تعالى في الأعراف : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَبَ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٠-٥١] .

وقوله في سورة العنكبوت : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

(١) المحرر الوجيز ٦٦١/٧ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣٣/٢٦ .

(٣) البرهان للكرمانی ١٥٣ وانظر ملاك التأویل ٣١٤/١ وما بعدها .

(٤) على طريق التفسير البياني ج ٣٢٢/١ وما بعدها .

فلم ذاك؟

فنقول: أما آية الأعراف فهي في قول أصحاب الجنة لأصحاب النار .
وأصحاب النار هم من المكلفين وليسوا من الأطفال أو الصبية .
واللهو هو المناسب لأعمارهم كما ذكرنا ، فقدم اللهو للمناسبة .

جاء في (ملاك التأويل) في هذه الآية: «أما آية الأعراف فإنها من قول المؤمنين أهل الجنة إخباراً عن حال الكافرين الموجبة لتعذيبهم . فقدموا في الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجاري مع سن التكليف والمساوق له الثاني عن اللعب . إذ وجود اللعب أولاً في السن التي معظمها غير سن التكليف . . .

ولم يذكر اللعب أولاً لأنه جار في البداية وحين لا تكليف» (١) .

وأما آية العنكبوت فالسياق يقتضي هذا التقديم فيها «ذلك أنه تقدم الآية قوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ . والرزق مدعاة إلى الانتهاء به والمشغلة لجمعه لا إلى اللعب ، ولذا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] .

فالذي بسط له رزقه ملته بجمعه ، والذي قدر عليه رزقه ملته بالحصول عليه» (٢) .

وجاء في (ملاك التأويل): «وأما آية العنكبوت فإنه تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ ولا يُسأل عن هذا ويجب إلا من جاوز سن اللعب وبلغ السن التي بها يتعلق التكليف للمخاطب ويصح خطابه وحسابه على تفريطه . فناسب

(١) ملاك التأويل ١/ ٣١٦ .

(٢) على طريق التفسير البياني ١/ ٣٢٥ .

ذلك من ذكر الحياة الدنيا ما يساوق تلك السن»^(١).

ومن الملاحظ أنه سبحانه قال في آية محمد: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ وقال في الأنعام: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

فجاء في آية محمد بـ (إنما) ، وفي آية الأنعام بـ (ما) و(إلا).

و(إنما) تفيد الحصر مثل (ما وإلا).

جاء في (لسان العرب): «ومعنى (إنما) إثبات لما يذكر بعدها ونفي لما سواه كقوله: (إنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي) ، المعنى ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو من هو مثلي»^(٢).

وقد تقول: إذا كان معناهما واحداً فلماذا جاء بـ (إنما) في آية محمد ، وبـ (ما وإلا) في آية الأنعام؟

والجواب: أن ثمة فرقاً بين استعمال (إنما) و(ما وإلا) كما قيل ، ف(إنما) تستعمل لما لا ينكره المخاطب ولا يدفع صحته .

وأما (ما وإلا) فتستعمل لما ينكره المخاطب ويشك فيه .

جاء في (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني: «اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء خبراً لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما نزل هذه المنزلة ، تفسير ذلك أنك تقول للرجل: إنما هو أخوك وإنما هو صاحبك القديم ، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقرّبه ، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب . . .

وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو (ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا)

(١) ملاك التأويل ١/ ٣١٦-٣١٧.

(٢) لسان العرب (أنن) وانظر دلائل الإعجاز ٢٥٠-٢٥٣ ، الإتقان ٢/ ٤٩.

فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه . فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ذلك» ^(١) .

والخطاب في آية محمد للمؤمنين كما هو ظاهر من سياق الآيات في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَمْناً ﴾ .

فهم لا ينكرون ما في الآية من أن الحياة لعب ولهو .

وأما آية الأنعام فالكلام في سياق الكافرين ، وقبلها قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ^(٢) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٩ - ٣٠] .

فهم ينكرون أن تكون الدنيا لهواً ولعباً وأن الدار الآخرة خير للذين يتقون ، ولذا قال سبحانه مخاطباً لهم : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

فناسب أن يخاطبهم بالنفي والإثبات فيقول : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .

فكل تعبير مناسب لسياقه .

ونحوه ما جاء في آية العنكبوت وهو قوله سبحانه : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] فإنها في سياق الكلام على الكافرين ، فقد قال قبل الآية : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

وقال بعدها : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَحَثْنَاهُمْ

(١) دلائل الإعجاز ٢٥٤ - ٢٥٥ وانظر شرح المختصر للتفتازاني ٨٦ - ٨٧ .

إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْتَهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
[العنكبوت: ٦٥ - ٦٦] .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

﴿وَلِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ .

أي : وإن تستمروا على الإيمان وتتقوا ربكم وذلك بالعمل بما أمر الله به وتنتهوا عما نهى عنه يؤتكم أجوركم .

وقدم الإيمان على التقوى لأنه الأول ولأنه لا تقوى مع عدم الإيمان .
﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ .

«أي لا يسألكم جميعها إنما يقتصر على ربع العشر» ^(١) وهو الزكاة .

«وقيل إنما يسألكم أمواله لأنه هو المالك لها حقيقة وهو المنعم بإعطائها» ^(٢) .

جاء في (روح المعاني): «والمعنى إن تؤمنوا لا يسألكم جميع أموالكم . . . وفيه مقابلة حسنة لقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ كأنه قيل: يعطيكم كل الأجور ويسألكم بعض المال وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة . . . وقيل: أي لا يسألكم ما هو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله عز وجل ، وهو المالك لها حقيقة ، وهو جل شأنه المنعم عليكم بالانتفاع بها» ^(٣) .

* * *

(١) الكشف ٣/ ١٣٤ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٦ .

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٨١ .

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ بَخْلُوْا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧] .

* * *

﴿فَيُحْفِفْكُمْ﴾ .

أي يبالغ في السؤال .

والإحفاء أشد السؤال والإلحاح فيه .

جاء في (الكشاف): «﴿فَيُحْفِفْكُمْ﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله ، والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء ، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح»^(١) .

﴿وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ﴾ .

أي بغضكم وعداوتكم وأحقادكم ، فإن الإحفاء في سؤال الأموال يخرج الأحقاد والضغائن .

جاء في (الكشاف): «أي تضطغنون على الرسول ﷺ وتضيّق صدوركم لذلك وأظهرتم كراحتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم»^(٢) .

والفاعل في قوله: «﴿وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ﴾» يحتمل أن يكون الله ، ويحتمل أن يكون البخل ، أي: يخرج البخل أضغانكم^(٣) .

وإضافة الأضغان إلى ضميرهم تدل على أن الإنسان منطوي على أوصاف منها الأضغان ، وتخرج في مواقف خاصة تدعوها إلى الخروج شأن الأوصاف الأخرى من الحب والكره وغيرها .

جاء في (نظم الدرر): «وقد دلّ إضافة الأضغان إلى ضميرهم أن كل

(١) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٣ ، المحرر الوجيز ٦/ ١٤٤ ، تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥٧ .

إنسان ينطوي بما له من النقصان على ما جبل عليه من الأضغان إلا من عصم الرحيم الرحمن»^(١).

* * *

﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤِلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

* * *

﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤِلَآءِ﴾.

كرر (ها) التنبيه فقال: ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤِلَآءِ﴾ للأهمية ، وذلك أن تكرار التنبيه يفيد الزيادة في التنبيه ، وهو يفيد التوكيد عند النحاة^(٢).

فإنه يقال (ها أنتم أولاء) من دون تكرار للتنبيه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩] فلم يكرر (ها) التنبيه.

كما يقال (ها أنتم هؤلاء) بتكرار التنبيه كآية محمد هذه ، ونحو قوله تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤِلَآءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ ۖ عَلِمْتُ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ ۖ عَلِمْتُ﴾ [آل عمران: ٦٦].

إن تكرار التنبيه في الآيات يفيد زيادة التنبيه ويفيد التوكيد^(٣) كما ذكرنا.

وقد كرر التنبيه في آية محمد هذه للأهمية ، وذلك أنه حذر المتولين عن

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧/ ١٨٠.

(٢) انظر جمع الهوامع ١/ ١٧٦ وانظر البحر المحيط ٢/ ٤٨٦ قوله تعالى: (ها أنتم هؤلاء).

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ج ١/ ٩٣ وما بعدها.

الإنفاق في سبيل الله باستبدال بهم قومًا غيرهم فقال ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ
قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وهي عقوبة شديدة ، فاستدعى ذلك الزيادة في التنبيه .

وقوله: ﴿لِنُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني جميع وجوه البر من النفقة في
الجهاد والزكاة وغير ذلك من وجوه البر .

جاء في (تفسير الخازن): «﴿تُدْعَوْنَ لِنُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: أراد
به النفقة في الجهاد والغزو ، وقيل: المراد به إخراج الزكاة وجميع وجوه
البر ، والكل في سبيل الله»^(١) .

﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ﴾

(عن) حرف جر معناه المجاوزة أي الابتعاد وذلك نحو قولنا (وضعت
عنه) أي أبعدته عنه بعد أن كان عليه ، بخلاف (وضعه عليه) ، قال
تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]
قيل: ومعنى (يبخل عن نفسه) يبعد الخير عن نفسه بالبخل^(٢) .

وقيل «أي إن ذلك البخل ضرر عائد إليه فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على
غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم ، فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمر
الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه»^(٣) .

وجاء في (التحرير والتنوير) أن معنى قوله ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ﴾ «إذ
يتمكن عدوه من التسلط عليه فعاد بخله بالضرر عليه» .

ويحتمل أن يكون المعنى: «فإنما يبخل عن نفسه بحرمانها ثواب
الإنفاق» .

(١) تفسير الخازن ٤٣٠/٥ وانظر تفسير أبي السعود ١٣٦/٦ ، تفسير القرطبي
٢٥٨/١٦ .

(٢) التصريح ١٥/٢ .

(٣) التفسير الكبير للرازي ٦٣/١٠ .

وفعل (بخل) يتعدى بـ (عن) لما فيه من معنى الإمساك .

ويتعدى بـ (على) لما فيه من معنى التضيق على المبخول عليه . وقد عدي هنا بحرف (عن)»^(١) .

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ .

عَرَفَ الغني بـ (أل) للحصر فإنه هو الغني لا غيره على الحقيقة .

﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ليس عندكم شيء إلا ما يعطيكموه ربنا سبحانه ، فالمال ماله على الحقيقة . جاء في (التحرير والتنوير) «فالله الغني المطلق ، والغني المطلق لا يسأل الناس مالاً في شيء .

والمخاطبون فقراء فلا يطمع منهم البذل ، فتعين أن دعاءهم لينفقوا في سبيل الله دعاء بصرف أموالهم في منافعهم كما أشار إلى ذلك قوله : ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾»^(٢) .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ لا غيره عز وجل . ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ الكاملون في الفقر ، فما يأمركم به سبحانه فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحكمة إيصالها بدون ذلك ، فإن امتثلتم فلکم ، وإن توليتم فعليکم»^(٣) .

قد تقول : لقد قال سبحانه في موطن آخر : ﴿بَنَاتُهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] .

فقال : ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية محمد .

وقال في آية فاطر : ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

(١) التحرير والتنوير ١٣٢/٢٦ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣٨/٢٦ .

(٣) روح المعاني ٨٢/٢٦ .

وقال في آية محمد: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ ولم يذكر (هو) ولم يذكر صفة (الحميد).

فلم ذاك؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه .

فإن سورة فاطر ذكر فيها نعم الله على الإنسان وأنه لا منعم ولا رازق سواه ، فقد قال سبحانه في أوائل السورة: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِزَّ اللَّهُ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢ - ٣] .

فالناس هم الفقراء إلى الله ليس لهم من رازق سواه ولا منعم سواه ، ولم يذكر نحو ذلك في آية محمد .

وذكر طرفاً من مظاهر نعمه بقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] .

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتُسَخَّرُونَ حِيلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتُبْنَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] .

ثم قال: إن الذين يدعون من دون الله ما يملكون من قطمير فقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤] .

فذكر أنه المالك وحده وأنه الرازق وحده وهو مالك السماوات والأرض فناسب أن يقول: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ ولم يذكر نحو ذلك في سياق آية محمد.

وقال (الحميد) أي المستحق للحمد على جهة الثبوت ، فقد ذكر نعمه على عباده فناسب أن يحمده على نعمه .

وأما في آية محمد فقد حذرهم وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فلا يناسب ذكر (الحميد) على هذا ، فهذا تحذير لهم بأن يذهبهم ويأتي بأحسن منهم .

ثم إنه في آية محمد دعاهم إلى الإنفاق في سبيل الله .

وأما في آيات فاطر فإنه هو الذي يعطيهم وهو المتفضل عليهم بالرزق والنعم . فناسب أن يقول في فاطر: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ .

أي: وإن تولوا عن الإيمان والتقوى وما أمر الله به من الإنفاق يستبدل قوماً غيركم ، أي: يذهبكم ويأت بأخرين أفضل منكم . ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التولي بل خيراً منكم^(١) .

جاء في (المحرر الوجيز): «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ معناه في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا»^(٢) .

وجاء في (النكت والعيون): «﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ فيه وجهان:

(١) زاد المسير/ ٣٨٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٧/ ٦٦٢ - ٦٦٣ .

أحدهما : يعني في البخل بالإنفاق في سبيل الله . . .
الثاني : في المعصية وترك الطاعة» (١).

وقد يقال : لقد قال سبحانه في سورة التوبة : ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ [التوبة : ٣٩] فزاد على الاستبدال العذاب فقال : ﴿يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فلم ذاك؟

والجواب أن آية التوبة في الجهاد .

وأما آية محمد ففي الإنفاق في سبيل الله .

والجهاد أثقل وأهم لما فيه من حفظ مصالح المسلمين وانتشار الإسلام وإذلال أعدائه . والقعود عنه أعظم وأكبر مما في آية محمد ، فإنه قد يكون سبباً لظهور العدو عليهم ، فناسب الزيادة في التحذير بالعذاب الأليم ، وهذا العذاب الأليم كما قيل «هو في الدنيا باستيلاء العدو ، وبالنار في الآخرة» (٢).

وجاء في (روح المعاني) ﴿يُعَذِّبَكُمُ﴾ أي الله عز وجل (عذاباً أليماً) بالإهلاك بسبب القحط وظهور عدو» (٣).

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه والله أعلم .

* * *

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣٧ .

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ١٤٢ .

(٣) روح المعاني ١٠/ ٩٦ .

المراجع



- الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ، ط ٣ / ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ .
- الإيضاح للخطيب القزويني - تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ، مطبعة السنة المحمدية .
- البحر المحيط لأبي حيان - ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ - مطبعة السعادة بمصر .
- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط ١ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م - دار إحياء الكتب العربية .
- البرهان في متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرمانى - راجعه أحمد عز الدين عبد الله خلف الله - ط ٢ / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م - دار الوفاء للطباعة والنشر - المنصورة ، مصر .
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار للنشر والتوزيع - عمان - الأردن .
- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي - منشورات مكتبة الحياة - بيروت - تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .
- التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للطباعة والنشر - تونس .

- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار للنشر والتوزيع - عمان - الأردن .

- تفسير أبي السعود - لأبي السعود بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض .

- تفسير الثعالبي - عبد الرحمن الثعالبي - تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

- تفسير الخازن - علاء الدين البغدادي المشهور بالخازن - ضبطه عبد السلام محمد علي شاهين - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- تفسير القرطبي - دار إحياء التراث العربي .

- التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد أويس الندوي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦ هـ - ١٩٧٣ م .

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر

- التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم - د. فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - ط ١ / ١٤٣٢ هـ

- الجملة العربية والمعنى - د. فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن .

- حاشية الصبان على شرح الأشموني - طبعت مع شرح الأشموني - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي - تحقيق عبد الله بن عبد

- المحسن التركي - مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية -
القاهرة - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - ط ٣ أصدرتها دار المنار
بمصر سنة ١٣٦٦هـ.
- شرح ابن يعيش للمفصل للزمخشري - طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية .
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهرى - دار إحياء
الكتب العربية .
- شرح رضي الدين الإستراباذي على الكافية لابن الحاجب .
- شرح المختصر على تلخيص المفتاح للتفتازاني - طهران .
- على طريق التفسير البياني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار
الفكر - عمان - الأردن .
- فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني - ط ١ -
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ .
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - نشر مكتبة القدسي سنة
١٣٥٣هـ .
- القاموس المحيط - لمجد الدين الفيروز ابادي - ط ٥/ شركة فن
الطباعة - مصر .
- كتاب سيبويه - مصور على طبعة بولاق - نشر مكتبة المثنى ببغداد .
- الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري مطبعة مصطفى
البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨ .
- لسان العرب لابن منظور - مصور على طبعة بولاق .
- لمسات بيانية للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان -
الأردن .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي - تحقيق وتعليق الرحالة الفاروق وآخرين - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر - الطبعة الثانية ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت .
- معاني القرآن لأبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء - مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.
- معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن . الطبعة الخامسة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠١١ م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - طهران .
- المفصل في علم العربية للزمخشري نشره محمود توفيق - مطبعة حجازي بالقاهرة .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المشابه اللفظ من أي التنزيل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- من أسرار البيان القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن .
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، مطبعة مصطفى محمد بمصر .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي - دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .
- النكت والعيون للماوردي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي - ط ١ سنة ١٣٢٧ هـ - مطبعة السعادة بمصر .

الفهرس



الصفحة

الموضوع

- المقدمة ٥
- مراعاة المقام في التعبير القرآني في الذكر والترك ٧
- ١- ذكر الخلود لأهل الجنة وأهل النار ٧
- ٢- ذكر أزواج المؤمنين والحدور العين ٩
- ٣- ذكر عالم الغيب وعالم الشهادة ٩
- ٤- من سورة البقرة - الآية ١١٠ ١١
- ٥- من سورة البقرة - الآية ١٧٢ ١١
- ٦- من سورة آل عمران - الآية ١٤ ١٣
- ٧- من سورة النساء - الآية ٧٥ ١٣
- ٨- من سورة النساء - الآيتان ١١٧، ١١٨ ١٤
- ٩- من سورة النساء - الآية ١٦٢ ١٦
- ١٠- من سورة الأنعام - الآيتان ٤٨ ، ٤٩ ١٨
- ١١- من سورة الأعراف - الآية ٤٣ ١٨
- ١٢- من سورة يونس - الآية ٣١ ١٩

- ١٣ - من سورة يونس - الآية ٧٥ ٢٠
- ١٤ - من سورة هود - الآية ٤٦ ٢٣
- ١٥ - من سورة يوسف - الآية ٤٢ ٢٣
- ١٦ - من سورة يوسف - الآية ٨٥ ٢٥
- ١٧ - من سورة يوسف - الآية ١٠٠ ٢٦
- ١٨ - من سورة إبراهيم - الآية ١ ٢٧
- ١٩ - من سورة النحل - الآية ١٠ ٢٨
- ٢٠ - من سورة الكهف - الآيتان ١٠٧ - ١٠٨ ٢٩
- ٢١ - من سورة طه - الآية ١١٧ ٣٠
- ٢٢ - من سورة الحج - الآيتان ٦ ، ٧ ٣١
- ٢٣ - من سورة الحج - الآية ٣٨ ٣١
- ٢٤ - من سورة الحج - الآيات ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ ٣٢
- ٢٥ - من سورة الحج - الآيتان ٥٨ ، ٥٩ ٣٣
- ٢٦ - من سورة الفرقان - الآية ٢٤ والآيتان ٧٥ - ٧٦ ٣٥
- ٢٧ - من سورة الفرقان - الآية ٤٧ ٣٩
- ٢٨ - من سورة الفرقان - الآية ٧٤ ٤٠
- ٢٩ - من سورة النمل - الآيتان ٣٩ - ٤٠ ٤١
- ٣٠ - من سورة النمل - الآية ٤٤ ٤٢
- ٣١ - من سورة العنكبوت - الآية ٦٨ ٤٢
- ٣٢ - من سورة الأحزاب - الآيات ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ ٤٦
- ٣٣ - من سورة سبأ - الآية ١٣ ٥١
- ٣٤ - من سورة يس - الآية ٥٥ ٥٢

- ٣٥- من سورة الزمر - الآيتان ٣٠ - ٣١ ٥٣
- ٣٦- من سورة الشورى - الآية ٣٧ ٥٤
- ٣٧- من سورة الدخان - الآية ١٧ ٥٥
- ٣٨- من سورة الدخان - الآيتان ٢٣ - ٢٤ ٥٦
- ٣٩- من سورة التحريم - الآية ١٢ ٥٧
- ٤٠- من سورة المعارج - الآيات ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ ٥٨
- الالتفات ٦٠
- ١- من سورة البقرة - الآية ٢٥٣ ٦١
- ٢- من سورة آل عمران - الآية ٩ ٦٢
- ٣- من سورة النساء - الآية ٦٤ ٦٤
- ٤- من سورة الأنعام - الآية ٩٩ ٦٦
- ٥- من سورة الأعراف - الآية ١٥٨ ٦٦
- ٦- من سورة يونس - الآية ٢١ ٧٠
- ٧- من سورة يونس - الآيتان ٢٢ - ٢٣ ٧٣
- ٨- من سورة مريم - الآيتان ٨٨ - ٨٩ ٧٤
- ٩- من سورة الروم - الآية ٣٩ ٧٥
- ١٠- من سورة الزخرف - الآيات ٧٠ - ٧٢ - ٧٣ ٧٦
- ١١- من سورة الدخان - الآيات ٣ - ٦ ٧٧
- ١٢- من سورة الفتح - الآيات ١ - ٢ - ٣ ٧٨
- سورة محمد ٨٠
- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ١ ٨١
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية ٢ ٨٥

- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ الآية ٣ ٨٩
- ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ الآية ٤ ٩١
- ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ الآية ٥ ٩١
- ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴾ الآية ٦ ٩١
- ﴿ يَكَايَهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ ﴾ الآية ٧ ١٠١
- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ ﴾ الآية ٨ ١٠٣
- ﴿ ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ كِرْهُوًا ﴾ الآية ٩ ١٠٤
- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية ١٠ ١٠٥
- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية ١١ ١٠٧
- ﴿ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية ١٢ ١٠٨
- ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً ﴾ الآية ١٣ ١١٣
- ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الآية ١٤ ١١٤
- ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ الآية ١٥ ١١٦
- ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ الآية ١٦ ١٢١
- ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ الآية ١٧ ١٢٤
- ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ الآية ١٨ ١٢٦
- ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ الآية ١٩ ١٣٠
- ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية ٢٠ ١٣٨
- ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ الآية ٢١ ١٣٨
- ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ الآية ٢٢ ١٤٥
- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ الآية ٢٣ ١٤٥
- ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ ﴾ الآية ٢٤ ١٤٩

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أْدْبَرِهِمْ ﴾ الآية ٢٥ ١٥١
- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ الآية ٢٦ ١٥٢
- ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ الآية ٢٧ ١٥٦
- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا ﴾ الآية ٢٨ ١٥٧
- ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الآية ٢٩ ١٦١
- ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاهُمْ ﴾ الآية ٣٠ ١٦٢
- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ ﴾ الآية ٣١ ١٦٣
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ الآية ٣٢ ١٦٧
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ الآية ٣٣ ١٧٣
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية ٣٤ ١٧٤
- ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ﴾ الآية ٣٥ ١٧٥
- ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ ﴾ الآية ٣٦ ١٧٧
- ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ الآية ٣٧ ١٨٣
- ﴿ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءَ ﴾ الآية ٣٨ ١٨٤
- المراجع ١٩١
- الفهرس ١٩٥

موضوع ذو أهمية خاصة، يستحق التصنيف فيه في أسفار كبيرة؛ لأنه أمر متألق في عموم المواطن من مواضع التعبير في القرآن الكريم، كالذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتوكيد وعدمه، وفواصل الآي، والالتفات، واختيار لفظة على أخرى، وغير ذلك من مواطن التعبير. وأورد المصنّف الأمثلة الدالة على هذا الموضوع القيم؛ المتعلق بالإعجاز القرآني، وبيانه الذي أعجز الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثل آية واحدة منه.

لقد راعى البيان الإلهي المقام والموضوع في التعبير مراعاة منقطعة النظير؛ لأسرارٍ قد يتوصل الدارس فيها إلى الوقوف على جماليات بعضها، بينما يبقى الكثير من الأسرار الأخرى بانتظار من يقف عليها، ويدلّ طلاب العلم على مضامين جمالها ومواضعها التي لا يماثلها بيان على الإطلاق.

ISBN: 978-614-415-149-5



9 786144 151495



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com